

"وادي الظلال"

د/ أحمد محمد

الكتاب : وادي الظلال

التصنيف : رواية

المؤلف : أحمد محمد

التصحيح اللغوي : داليا محمد

تصميم الغلاف : مروه صلاح

التسيق الداخلي : أحمد طه

الطبعة الأولى : 2026 / 2027

رقم الإيداع : ٢٠٢٦/١٤٧١٥

الترقيم الدولي : ٦ - ٤١ - ٨٤٩٠ - ٦٣٣ - ٩٧٨

الناشر : دار انطلاق للنشر والتوزيع

مدير الدار / احمد مكي

للتواصل : startpublishing372@gmail.com

من هنا تبدأ الحكايات ويبدأ الأثر

تليفون الدار : ٠١١٥٥٧٩٩٣٢١

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية،

يعرض صاحبه للمساءلة

القانونية، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في

الكتاب فهي خاصة بالكاتب

فقط لا غير.

الفصل الأول

"منزل الذاكرة"

لم تكن الشمس تغرب في قرية (تل العزلة) بقدر ما كانت تنزف حتى الموت فوق أفق التلال الصخرية. كانت القرية، التي تقع في حوض وادٍ ضيق تكسوه أشجار السنط الشائكة، تبدو كندبة قديمة في جلد الأرض. بيوتها الطينية المتلاصقة تنام في ظل أبدي لا يبده شيء، حتى في عز الظهيرة.

وصل الدكتور (كريم الشاذلي) إلى القرية في ساعة الغسق، تلك الساعة التي قال عنها أهل الريف إن (الجن تهبط فيها إلى الأودية لتشرب من ماء الحزن). كان كريم في الخامسة والأربعين من عمره، لكن عينيه الغائرتين خلف نظارته السمكية كانتا تحملان وهن رجل في السبعين. أستاذ التاريخ في جامعة القاهرة، قضى عشرين عامًا وهو يفر من هذا المكان.

والآن يعود إليه، ليس بحثًا عن ماضٍ، بل هربًا من مستقبل انهار بين يديه...

توقفت سيارته الرباعية الدفع أمام منزل مهجور في طرف القرية، حيث تتوقف البيوت ويبدأ الوادي المظلم؛ كان المنزل كبيراً، ذا طابقين، مبنياً من الحجر الأسود الذي تمتصه التلال. ورثه كريم عن جده الذي لم يراه قط، والذي مات في ظروف غامضة قبل ثلاثين عامًا. لم يكن هناك أحد ليدفنه سوى الغرباء.

- " لماذا هنا يا أبي؟ "

سألته ابنته (سلمى) من المقعد الخلفي.

كانت في السادسة عشرة من عمرها، وجهها الشاحب يحمل ملامح والدتها الراحلة لدرجة موجعة؛ عيناها الواسعتان كانتا تنظران إلى المنزل برغبة، بينما يداها تعبثان بشعرها الأسود الطويل في حركة عصبية.

- " نحن بحاجة إلى مكان هادئ، مكان لا يعرفنا فيه أحد "

= " مكان لندفن أنفسنا، تقصد "

لم يجبها...

خرج من السيارة، واقترب من البوابة الحديدية الصدئة؛ البوابة كما لو كانت تنتظره، انفتحت بصوت يشبه صرخة مكتومة؛ فاحت رائحة شيء قديم، ليس مجرد غبار، بل رائحة الذاكرة المتعفنة.

دخلوا المنزل كثلاثة أشباح "كريم، سلمى، والطفل (آدم)"، ابنه ذو التسع سنوات؛ آدم لم يتكلم منذ ثلاثة أشهر، ليس صمتاً اختيارياً، بل جداراً نَمًا في حلقة بعد أن رأى أمه تموت في حادث السيارة...

كان الطبيب قد قال :

- "حباله الصوتية سليمة، لكن روحه هي التي تحطمت"

المنزل من الداخل كان أوسع مما يبدو من الخارج، لكن هذا الاتساع كان خائفاً؛ الأثاث القديم المغطى بملاءات بيضاء بدا كتلة من الأشباح المتجمدة في منتصف رقصة موت...

الجدران كانت مغطاة بورق جدران متقشر، وتحت القشور، كانت هناك رموز محفورة في الجص، رموز لم تكن عربية ولا قبطية، بل شيء أقدم، كتابة تشبه تشنجات الحشرات على الرمال.

في تلك الليلة الأولى لم يستطع أحد النوم؛ الريح التي كانت تصفر عبر شقوق الجدران لم تكن مجرد ريح، كانت تحمل همسات، همسات بلغة قديمة قال عنها جده ذات مرة في مذكرات ممزقة إنها :

" لغة القابعين تحت الأرض، لغة من لم يخلقهم الله بل خلقهم ألم البشر "

ثلاثة أشهر سابقة - القاهرة

لفهم الرعب الذي كان سيبتلع عائلة الشاذلي، يجب أن نعود إلى الوراء، إلى اللحظة التي انكسر فيها كل شيء. يوم الحادث؛ يوم ماتت (مريم)، زوجة كريم وأم الطفلين.

كانوا في طريق العودة من حفل زفاف أحد الأقارب؛ كريم كان يقود، وكانت الساعة متأخرة، على الطريق الدائري ظهرت الشاحنة من العدم؛ الضوء الأبيض الساطع، صوت الحديد وهو ينثني كالورق، وجه مريم الذي التفت إليه مبتسمً قبل الاصطدام بثانية، ثم تحول إلى قناع أحمر، زجاج، كثير من الزجاج.

لكن ما لم يخبر به كريم أحدًا، ولا حتى الطبيب النفسي الذي حاول علاجه من صدمته، هو ما رآه قبل ثانية من الاصطدام مباشرة...

على جانب الطريق المظلم، وتحت ضوء عمود الكهرباء الوحيد المتراقص، كان هناك شخص واقف؛ طويل جدًا، نحيل جدًا لدرجة أن أطرافه بدت كأغصان شجرة محروقة، كان يبتسم... ليس ابتسامة بشرية، بل اتساع في وجهه كشرخ في جدار قديم؛ وعندما التقت عينا كريم به للحظة، أدرك أن هذا الشيء لم يكن مجرد متفرج على الحادث، بل كان المايسترو الذي يقود سيمفونية الموت هذه.

لم يخبر أحدًا لأنه ببساطة، من سيصدق ذلك؟ وحتى لو صدقوه، ماذا سيكون التفسير؟ الجنون؟ الإرهاق؟ الهلوسة؟ في أعماقه كان يعرف أن شيئًا ما، كيانًا قديمًا لا يفهمه، قد وضع عينه عليهم.

والآن، بعد ثلاثة أشهر، عاد ذلك الشيء إلى الظهور...

القرية : الليلة الأولى

استيقظت سلمى على صوت أظافر تخدش باب غرفتها...

جلست في سريرها ببطء، قلبها ينبض بعنف؛ الغرفة كانت تغمرها إضاءة خافتة قادمة من نافذة صغيرة تظهر سماء ملبدة بالغيوم، صوت الخدش كان يأتي من الأسفل، من الفجوة بين الباب والأرضية الحجرية.

" آ... ف... أأ... آك؟ "

- " آدم؟ "

همست بصوت مرتجف...

- " أنت هناك؟ "

توقف الخدش للحظة، ثم عاد، لكن هذه المرة كان أسرع، أشد هياجًا.. كما لو أن شيئًا له أظافر طويلة جدًا يحاول شق الخشب.

نهضت ببطء، قدماها الحافيتان تتجمدان من برودة الحجر؛ اقتربت من الباب... وضعت يدها على المقبض المعدني البارد، الخدش استمر ولم يتوقف؛ وعندما أحنّت رأسها نحو ثقب المفتاح لتتظر، رأت شيئا لا يمكن لعقلها استيعابه.

كانت هناك عين في الجهة الأخرى من الثقب، ولكنها لم تكن تنظر من الخارج إلى الداخل، كانت العين قريبة جدًا، شديدة القرب، لدرجة أنها بدت ككرة جيلاتينية ضخمة تملأ الثقب بأكمله؛ قزحية العين لم تكن مستديرة، بل بيضاوية أفقية، بلون أصفر مريض، وبؤبؤ العين لم يكن أسودًا، بل كان فجوة إلى فراغ لا نهائي.

والأسوأ، أن العين لم تنظر إليها... كانت تنظر خلفها، إلى شيء في الغرفة، استدارت سلمى ببطء شديد، وفي انعكاس المرآة القديمة المغطاة بالغبار على الجدار المقابل، رأت أن شيئًا كان واقفًا خلفها منذ أن نهضت من السرير...

كان طويل القامة، يصل إلى السقف، جسده كان كفطر أسود عملاق،
ألمس ورطب، مع أطراف نحيلة جدًا ومتعددة؛ لم يكن له وجه، فقط
تموجات على سطح ما يمكن تسميته برأسه، تموجات تفتح وتغلق كأنها
تتنفس، فتح فمه...

كان الفم فتحة عمودية، من قمة الرأس حتى الصدر، وعندما انفتح، كان
داخله مليئًا ليس بأسنان، بل بوجوه صغيرة، وجوه أطفال قرويين
يصرخون في صمت أبدي.

صرخت سلمى، أو حاولت ذلك... لكن شيئًا ما، يدًا من الفراغ، أغلقت
على حنجرتها وسحبت الصوت من رئتيها قبل أن يغادر شفتيها، سقطت
على الأرض وهي تتشنج، ورغوة بيضاء بدأت تخرج من فمها.

في الطابق الأسفل، كان كريم يغفو على كرسي في المكتبة القديمة لجده،
بين أصابعه صورة لامرأته مريم، عندما اهتز المنزل كله...

لم يكن زلزالاً، كان كما لو أن مخلوقاً عملاقاً تحت أساسات البيت قد قلب نفسه في سباته؛ سقطت الكتب من الرفوف، الزجاج في النوافذ تصدع، ركض إلى غرفة ابنته، فوجد الباب موصداً؛ دقه بكتفه، لكنه لم يتحرك كان كما لو أن شيئاً على الجهة الأخرى يدفع الباب بقوة مساوية.

ثم، فجأة، انفتح الباب؛ سلمى كانت مستلقية على الأرض، تتشنج وعيناها كانتا مفتوحتين على مصراعيهما، بيضاء بالكامل، بلا بؤبؤ، من فمها كانت تخرج كلمات بلغة لا يعرفها، بصوت خشن ليس صوتها :

- " أنا قادم من حيث لا توجد أسماء، أنا ما تسربل بالنسيان، أنا الناحت، أنا من أنحت الموت في أحشاء أمك قبل أن تولد، هذه الأرض لي هذا البيت لي... وأنتم، مجرد طعام لمائدتي "

الفصل الثاني

"تحت الجدر"

في اليوم التالي، جاء الشيخ (يونس) إلى المنزل؛ كان عجوزًا في الثمانين من عمره، جلد وجهه مثل لحاء شجرة بلوط قديمة، وعيناه ضيقتان كأنهما تنظران إلى الدنيا من شق في جدار. مشى بعكازه المعدني على الأرض الحجرية، وكان صوته مثل حفيف ورق الخريف.

- " ابنتك لم تصب بالصرع، يا دكتور "

قال الشيخ يونس وهو يتفحص عيني سلمى، اللتين عادتتا إلى طبيعتهما لكن بقيت فيهما مساحة من الرعب المتجمد...

- " هذه ليست نوبة؛ هذه زيارة، أحدهم دخل جسدها الليلة الماضية، وجس نبض روحها "

كريم كان جالسًا على حافة السرير، يحمل يد ابنته الباردة :

- " زيارة من؟ "

= " من صاحب الدار "

- " هذا منزل جدي... نحن نملكه "

قهقهه الشيخ يونس ضحكة جافة خالية من أي روح...

- " أنت لا تملك شيئاً هنا، أنت مستأجر، كل البشر مستأجرون في هذا الوادي، جدك كان يعرف ذلك؛ لماذا تظنه مات وحيداً، بصمت، دون أن يخبر أحداً؟ الرجل عقد صفقة مع صاحب الأرض الحقيقي، صفقة حماية، وعندما حان وقت الدفع، هرب إلى الموت، لكن الموت ليس مخرجاً من ديون هذا الكيان "

ثم رفع قميص سلمى قليلاً عند بطنها، وعلى الجلد الشاحب، كانت هناك علامة... علامة لم تكن موجودة من قبل؛ كانت تشبه خدشاً عميقاً، لكنه ليس مصنوعاً بأظافر، كان يشبه كتابةً، رموزاً متصلة كتلك التي كانت تحت ورق الجدران، لكنها هنا محفورة في اللحم الحي، بخط أسود يميل إلى الزرقة، كما لو أن الحبر قد نفذ تحت الجلد مباشرة.

- " علامة الناحت "

همس الشيخ يونس، ولأول مرة بدا الخوف على وجهه.

- " الناحت؟ "

= " هذا الاسم الذي أطلقته عليه؛ اسمه الحقيقي لا يعرفه أحد، أقدم من العربية، أقدم من الفرعونية، الكيان كان موجودًا هنا قبل أن يُخلق البشر؛ هو ليس جنًا، وليس شيطانًا بالمفهوم الذي تعرفه، الجن والشياطين مخلوقات مثناة، لها حدودها وقوانينها، لكن هذا... " وأشار إلى العلامة " هذا جزء من شيء آخر، هو النسيج الذي يفصل بين العوالم، هو الظل الذي يلقيه غضب الله على الأرض "

نهض كريم، عيناه تقدحان غضبًا ويأسًا :

- " أنا لا أؤمن بخرافات القرى "

فجأة، تحول وجه الشيخ يونس إلى شيء حاد وجاد :

- " إذن، اشرح لي هذا "

أشار إلى صورة معلقة على الحائط، صورة قديمة بالأبيض والأسود لجمع من القرويين أمام مسجد صغير.

- " انظر إلى الرجل الذي في الوسط "

تقدم كريم ونظر؛ كان رجلاً بدينًا، بلامح ريفية عادية، يبتسم ابتسامة عريضة...

- " هذا (عبد المولى)، مختار القرية السابق؛ مات منذ أربعين سنة "

= " وماذا عنه؟ "

أخرج الشيخ يونس من جيبه صورة أحدث بالألوان، ألقاها على السرير:

- " هذه التقطت قبل أسبوعين عند حافة الوادي الشرقي... انظر إليها "

نظر كريم إلى الصورة؛ كانت لمجموعة من الأطفال يلعبون عند الغسق وفي خلفية الصورة، غير ملاحظ من قبل الذين التقطوها، كان هناك شخص واقف، رجل بدين، بملامح ريفية، يبتسم ابتسامة عريضة، كان عبد المولى، لكن وجهه لم يكن طبيعيًا، كان هناك شيء في الابتسامة، الفم كان واسعًا جدًا، والعينان كانتا واسعتين جدًا، وكأن وجهه مجرد قناع مشدود على شيء ليس له ملامح بشرية.

- "هذا ليس رجلًا، هذا مسخ، هذا وعاء يستخدمه الناحت للتحول بيننا؛ عبد المولى الحقيقي مات، لكن قشرته بقيت... فهمت الآن؟ جدك لم يمت فقط، جدك..."

ولم يكمل الشيخ يونس جملة؛ الباب الأمامي للمنزل أغلق بقوة هائلة...

تلك الليلة، جلس كريم في المكتبة القديمة لجده، محاطًا بأكوام من الأوراق المصفرة والمذكرات؛ لم يصدق الشيخ يونس تمامًا، لكن شيئًا في أعماقه، شيئًا أقدم من المنطق والعلم، كان يصرخ بأن كل هذا حقيقي.

فتح أحد دفاتر جده القديمة، كان الغلاف الجلدي متآكلًا، والصفحات الداخلية مكتوبة بخط يد مرتعش...

٢٣ أكتوبر ١٩٧٣

- " لقد أتى مجددًا الليلة؛ لا أعرف كم مرة سأستطيع الاحتفاظ بعقلي،
الشكل الذي يتخذه متغير دائمًا، بالأمس كان طفلاً يبكي عند بابي، اليوم
هو زوجتي الراحلة، تقف في الحديقة وتتادي اسمي، لكن العينين...
العينين دائمًا متماثلتان، بؤبؤان ليسا للمخلوقات التي خلقها الله... فراغان
يشبهان تقبين في نسيج الواقع... "

أدار الصفحة...

٣٠ نوفمبر ١٩٧٣

- " فهمت الآن... إنه لا يريد أن يقتلني، هذا ليس هدفه، الموت سهل، هو يريد أن يعزلني، أن ينزع مني كل ما أحب، أن يجعلني شجرة جافة بلا أوراق... ثم، عندما أكون وحيدًا تمامًا في صحراء روعي، سيأتي ليقطفني؛ هو يتغذى على المعاناة، اليأس هو الهواء الذي يتنفسه، لذلك... قررت أن أتوقف عن الحب، أن أتوقف عن الاهتمام، أن أصبح حجرًا، ربما بهذا أهزمه "

صفحات، صفحات وصفحات من الهذيان،

ثم فجأة في صفحة مكتوبة بحبرٍ أحمر...

١٥ يناير ١٩٧٤

- " لقد كذبت على نفسي، لا يمكنك أن تتوقف عن الحب، إنه يعرف ذلك، وجد طريقة جديدة، الليلة... أخذ شكل حفيدتي التي لم تولد بعد أخذ شكل سلمى، وقف أمامي، الطفل الذي سيأتي بعد أربعين عامًا، وقال بصوت ملائكي : > يا جد، لماذا تخليت عني؟ لماذا تركتني أحترق وحدي في هذا الظلام؟ < أنا رجل عجوز مكسور سامحيني، يا من لم أولد بعد "

تسمرت عينا كريم على اسم ابنته... جده كتب عن سلمى قبل أن تولد أمها؛ كيف عرف الاسم؟ كيف عرف أنها ستكون حفيدته؟
ثم سمع صوت خطوات في الغرفة فوقه؛ غرفة سلمى...

ركض إلى الأعلى، وقبل أن يصل، سمع صوت ابنته، لكن مختلف؛ صوتها رقيق، أعاد سنوات إلى الوراء، عندما كانت في السادسة من عمرها.

- " بابا... بابا... تعال... إنه يؤلمني "

فتح الباب بقوة... سلمى كانت جالسة على سريرها، لكن وضع جسدها كان خطأ، كل شيء في جلوسها كان خاطئاً، رأسها كان مائلاً بزاوية غير طبيعية، عيناها كانتا تنظران في اتجاهين متعاكسين، وعندما تكلمت، تحرك فكها السفلي كأنه منفصل عن جمجمتها.

- " بابا... لماذا تبدو خائفاً؟ ألا تعرفني؟ أنا سلمى، أنا ابنتك التي تحبها تعال إلى هنا، عانقني "

كان شيئاً يتحدث من خلالها، شيئاً يتعلم، شيئاً يلعب...

ثم، من العدم، دخل آدم الغرفة...

عينا الطفل كانتا مثبتتين على أخته، والدموع تتهمر على وجهه بصمت؛
ومنذ ثلاثة أشهر، للمرة الأولى، فتح فمه وصرخ...

لم تكن صرخة طفل، كانت عواء حيوان جريح، كلمة واحدة فقط خرجت
من بين شفتيه، بصوت مزق النسيان :

- " الظل! "

وانهارت الغرفة في الظلام...

الفصل الثالث

" ما علمته الريح "

قضى كريم الأيام التالية في بحث محموم، أوراق جده، سجلات القرية القديمة في مبنى البلدية المهجور، مقابلات مع الشيوخ المسنين الذين كانوا يخافون حتى من ذكر اسم الناحت، الصورة بدأت تتضح، والصورة كانت أسوأ من أي كابوس.

الناحت، كما فهمه، لم يكن شيطانًا ساقطًا، لم يكن من عالم الجن، كان أقدم من ذلك بكثير؛ كان موجودًا قبل خلق آدم، في الكتب المنسية التي حصل عليها من قبو الجامع القديم، وجد إشارات إلى "كائنات الظل الأول"، الكائنات التي خلقت من الدخان الذي سبق النور، عندما خلق الله العالم، كانت هذه الكائنات تتسرب في الفجوات بين الأشياء، في المسافة الفاصلة بين كلمة "كن" و"فيكون".

كانت تعيش على عدم الاكتمال هذا؛ وعندما سقط بعضُها، لم يسقط إلى جهنم... سقط إلى الأرض، إلى مناطق معينة، أو كما سمتها النصوص، "واديان الظلال..."

وادي تل العزلة كان إحدى هذه المناطق...

كل هذه السنين، كان الناحت ينتظر، يزرع، ويحصد، نادرًا ما يقتل
بنفسه، هو كائن من النظام الكوني، له قواعده لكنه يستطيع أن يهمس،
أن يوسوس، وأن يدفع بالبشر إلى حافة الهاوية، ويتركهم يقفزون
بإرادتهم، كان مهندس يأس، نحات ألم.

وفي ليلة اكتمال القمر، أتى لكريم في المنام...

لم يكن منامًا، كان وعيًا في فراغ بين العوالم، كان كريم واعيًا أنه نائم في
سريره، وفي نفس الوقت كان واقفًا في سهل رمادي لا نهائي، تحت سماء
بلا نجوم أمامه، كان هناك باب قائم بلا جدران.

باب خشبي قديم، يشبه باب منزل جده...

انفتح الباب، وخرج منه رجل...

كان يرتدي بدلة قديمة، أنيقة بشكل غريب، كأنه من زمن آخر؛ كان وجهه ناعماً، خالياً من التجاعيد، لكنه كان يحمل تعبيراً جعل كريم يشعر بالغثيان، كان تعبير حب مشوه، حب جائع.

- " أخيراً، نلتقي وجهاً لوجه يا كريم "

قال الرجل... صوته كان هادئاً، مثقفاً، فيه نبرة أستاذ جامعي.

- " لقد تابعت مسيرتك الأكاديمية؛ أطروحتك عن الأساطير القديمة كانت غير دقيقة في بعض النقاط، لكنها أظهرت فضولاً، الفضول صفة أقدرها "

= " من... من أنت؟ "

الرجل ابتسم... وعندما ابتسم، رأى كريم فمه؛ اللثة كانت سوداء.

- " أنا من نتحدث عنه؛ الاسم الذي تهمس به في أوراقك (الناحت) لكن هذا اللقب بدائي، أنا أفضل أن تفكر بي على أنني نحات، فنان، أصنع التحف من المواد الخام التي تعطوني إياها، أرواحكم، آمالكم، أحلامكم، آخذها وأحولها إلى... حسناً، إلى شيء جميل "

= " ماذا تريد من عائلتي؟ "

- " أريد أن أساعدكم "

قال الناحت، متقدمًا خطوة.

- " انظر إلى حياتك كريم، زوجتك ميتة، ابنك أبكم من الصدمة، ابنتك

تنهار، حياتك المهنية دمرت، أنت تعيش على قرض من الذكريات؛ أنا

أستطيع أن أصلح كل هذا، أستطيع أن أعيد لهم أصواتهم، عقولهم،

وأكثر... أستطيع أن أعيد مريم "

تجمد دم كريم...

= " ماذا قلت؟ "

- " الموت، يا صديقي، ليس حدًا، هو انتقال، ومثل أي انتقال... يمكن

تعديله؛ يمكنني إعادة زوجتك، ليست شبحًا، وليست خيالًا، جسدًا حقيقيًا،

حية، دافئة، محبة "

= " مريم "

مجرد ذكر اسمها جعل عيني كريم تدمعان؛ تخيلها واقفة أمامه، تبتسم،
تلمسه، لمسة يدها، رائحة شعرها.

= " وماذا سيكون الثمن؟ "

اتسعت ابتسامة الناحت...

- " الثمن؟ لماذا تظن دائماً أن هناك ثمنًا؟ أنا لست بائعًا، أنا فنان،
أعمالي الفنية هي مكافأتي، فقط عُد إلى القاهرة، انس هذا المكان،
اتركني وشأني هنا "

= " ولماذا تريد مني أن أرحل؟ "

لأول مرة، تردد الكيان عيناه، رغم كونهما في شكل بشري، رمشتا بشكل
طولي، ليس مثل أي عين بشرية...

- " لأن وجودك هنا، يخل بالتوازن؛ أنت تحفر في الماضي، في الذاكرة،
والأشياء المدفونة يجب أن تبقى مدفونة "

أدرك كريم حينها أن خوف الناحت لم يكن منه، بل مما قد يجده؛ كان
جد كريم قد اكتشف شيئاً ما، شيئاً أخفاه في هذا المنزل، سلاحاً، نقطة
ضعف.

= " لن أرحل "

قال كريم...

في تلك اللحظة، تحول وجه الناحت؛ أصبح شمعيًا، يذوب، الملامح
الإنسانية انسحبت إلى الداخل، كأنها قناع يتم امتصاصه في الفراغ الذي
خلفه، وما ظهر كان الرعب الحقيقي، لم يكن له شكل ثابت، كان يتغير
باستمرار، يمر عبر تكوينات من المستحيل أن يراها عقل بشري دون أن
يتحطم؛ كان كتلة من الزوايا الحادة، الأفواه المتعددة، العيون التي كانت
نوافذ إلى عوالم من العذاب.

- " إذن "

قال الصوت، الذي أصبح الآن جوقة من الهمسات المتداخلة.

- " دَع اللعبة تبدأ حقًا، سوف تنحت أملك بنفسك؛ سوف تعطيني

تحفتي الفنية، وعندما تنتهي، لن تتوسل من أجل موتهم، سوف تتوسل

من أجل موتك أنت "

استيقظ كريم على صوت انهيار جزء من سقف الغرفة العلوية فوقه، في

غرفة سلمى، بدأ صوت الضحكات، ليست ضحكات بشرية، كانت قرقعة

أشبه بتكسير عظام.

ركض إلى الأعلى... غرفة سلمى كانت مدمرة، الأثاث محطم، المرآة

مكسورة إلى ألف قطعة، سلمى كانت واقفة في المنتصف، ترتدي فستان

زفاف أبيض متسخًا لم يره كريم من قبل كانت تضحك بصوت عالٍ،

ودموع سوداء تتهمر من عينيها.

- " انظر يا أبي! انظر! "

قالت وهي ترفع يديها إلى السماء.

- " العريس قادم! الناحت اختارني! سأتزوج الليلة في الوادي! "

ثم وضعت يديها على بطنها، الذي بدأ فجأة ينتفخ أمام عينيها، كما لو أن شيئاً ينمو بداخلها بسرعة مرعبة...

- " وسألد له أطفالاً، كثيرًا من الأطفال، وسيخرجون من أحشائي كالودود، وسيأكلون العالم... "

أغمي على سلمى... وعندما أمسكها كريم، كانت جبهتها تحترق بحمى لا يمكن أن تكون بشرية؛ على جلد بطنها، كانت علامة الناحت تنتشر، تتمدد كالجنور تحت الجلد، تشكل خريطة من الندوب الحية.

كانت تلك لحظة كسر كريم؛ ليس خوفًا، بل إدراكًا، لقد عبر الكيان كل الحدود، لقد لمس ابنته بطريقة لا يمكن وصفها.

في تلك الليلة، فتح كريم آخر دفاتر جده، وفي الصفحة الأخيرة، المخبأة تحت غلاف مقوى مزيف، وجد خريطة مرسومة بالدم؛ خريطة تقوده إلى قلب الوادي، إلى ما سماه جده (مكان السلخ)، حيث كان الناحت في أضعف حالاته، ولكن كانت هناك ملاحظة في أسفل الخريطة، كتبت بخط مرتعش :

(لا تحضر من تحب؛ سيستخدمهم ضدك، سوف ينزع جلودهم ويرتديها ليعذبك، تعال وحدك، وفي النهاية ستعرف أن الموت هو الهروب الوحيد)

لكن كريم كان يعرف في أعماقه أن جده كان مخطئًا؛ الموت لم يكن هروبًا، كان هو ما يريده الناحت...

الفصل الرابع

"نزول سلمى"

الآن، يجب أن نترك كريم لبقية الليل، لأن قلب هذا الجزء من الرواية هو ما حدث لسلمى أثناء غيبوبتها؛ ليس في العالم الحقيقي، بل في عالم الناحت.

عندما أغمي عليها، لم تفقد وعيها بالعكس، وجدت نفسها في حالة وعي حادة جدًا، أكثر وضوحًا من أي حقيقة؛ كانت في حقل شاسع من القمح الذابل، تحت سماء صفراء، الهواء كان كثيفًا، دافئًا بشكل مريح، يحمل رائحة شيء حلو ومتعفن في نفس الوقت، مثل فاكهة على حافة التعفن.

كانت ترتدي فستان الزفاف الأبيض، لكنه لم يعد متسخًا، كان نظيفًا، ناصع البياض، كأنه مصنوع من ضوء القمر، شعرها كان منسدلاً، أملس، تتخلله أزهار صغيرة ذابلة.

- "سلمى..."

همس صوت من خلفها... كان صوت أمها.

استدارت ببطء؛ كانت مريم واقفة هناك، بفستانها الصيفي المفضل، مبتسمة، لكن شيئاً ما كان خطأ.

بشرة أمها كانت شاحبة جداً... وعيناه لم ترمشا.

- "ماما؟"

قالت سلمى، وصوتها كان صوت طفلة صغيرة.

= "حبيبتي... تعالي إلى أمك..."

مدت مريم ذراعيها.

- "اشتقت إليك كثيراً"

ركضت سلمى إلى أمها، عانقتها؛ لكن جسد مريم كان بارداً، صلباً كأنها تعانق تمثالاً.

- "لماذا أنت باردة هكذا يا ماما؟"

" = "لأنني ميتة، يا حبيبتي "

انفصلت سلمى عن العناق ببطء؛ وجه أمها كان يتغير، الجلد بدأ يتقشر،
الشففتان انكمشتا عن أسنان ولثة مسودة.

" = "ولكن لا تحزني؛ أنا هنا الآن وسنكون معاً، فقط إذا... ساعدتني "

- "كيف أساعدك؟ "

" = "بأن تعطيني حياتك "

في تلك اللحظة، تحولت مريم بأكملها؛ الجلد سقط دفعة واحدة، وتحت له لم
يكن لحمًا وعظامًا، كان هناك كيان آخر، الكيان الذي كان يرتدي مريم
كما يرتدي الإنسان معطفًا، كان هزيلًا، جلده مشدود على عظامه كأنما
جُفف في فرن، وعيناه هما عينا الناحت نفسه، الفراغان.

صرخت سلمى وبدأت في الركض عبر حقل القمح؛ لكن الحقل كان لا نهائياً، وخلفها، بدأت الأرض في التصدع؛ من التصدعات خرجت أيادٍ لا تحصى، أيادٍ سوداء، طويلة، تنتهي بأصابع بلا أظافر، تزحف نحوها، أمسكت بكاحلها، سحبتها، وسقطت في شق عميق في الأرض.

لم تصطدم بالقاع... وجدت نفسها معلقة في فراغ مليء بالمرايا، مرايا عائمة في الظلام، وكل مرّة تعرض مشهداً مختلفاً؛ مشاهد من حياتها، يوم ميلادها الأول، أول يوم في المدرسة، أول مرة رأت فيها البحر، لكن كل هذه المشاهد كانت مشوهة، في كل واحدة، كان هناك شيء إضافي، الناحت، واقفاً في الخلفية، خلف باب، خلف نافذة، تحت سريرها، دائماً هناك... دائماً يراقب.

- "كنت معك منذ البداية"

قال الصوت في رأسها.

- " كل لحظة فرح عشتها، كنت فيها، كل دمة ذرفتها، كنت أتذوقها،
أنت محصولي، أنت وجبتي "

= " لماذا؟ "

صرخت في الفراغ.

= " لماذا أنا؟ "

- " لأن جدك وعدني بك "

توقفت أنفاس سلمى...

- " في ليلة شتاء سنة ١٩٧٤، جاء جدك إلى هيكلي في عمق الوادي؛
كان يائساً، كان يريد الخلاص لنفسه، فعقد صفقة، روحه كانت عجوزاً،
مرة، بلا طعم... لذلك، وعدني بشيء أثمن، وعدني بحفيدته الأولى،
بك... كل ما كان عليه فعله هو أن يضمن أن ابنه، أباك، سيعود يوماً
ما إلى هذا المنزل، ومعه عائلته؛ جدك زرع البذرة، رتب موت، كتب
الوصية التي لا يمكن لعائلتك مقاومتها، والآن، بعد أربعين عاماً، ها أنت
هنا... الوفاء بالوعد "

بدأت المرايا تتكسر واحدة تلو الأخرى؛ الزجاج المتساقط كان يتحول إلى
طيور سوداء صغيرة تحلق حولها، تنقر جسدها، تمزق فستان الزفاف،
كانت تشعر بكل نقرة، لكنها لم تكن تتزف دمًا، كانت تتزف ضوءًا،
ضوءًا أبيض دافئًا يسحب منها.

- " لا تقاومي... سيزول الألم، ستصبحين جزءًا مني، وسأرتديك كما
ارتديت أمك، لأخدع أباك، وسأقوده إلى هلاكه، كما قاد جده من قبل،
وكما سأقود ابنك من بعد "

عندها فقط نظرت سلمى إلى أسفل... بطنها المنتفخ كان يتحرك، شيء
ما كان يتحرك بداخلها، ليس طفلًا، بل شيئًا له أطراف كثيرة جدًا.

- " ابنك "

همس الناحت...

- " أول أطفالي الذين سيمشون على الأرض منذ آلاف السنين "

في العالم الحقيقي، جسد سلمى على السرير تقوس فجأة؛ ظهرها انحنى بقوة، وعيناه انفتحتا على مصراعيهما... صرخت صرخة مزقت صمت الليل.

- " أبي! "

كانت صرختها الأخيرة كإنسانة كاملة...

ثم استرخى جسدها؛ وعندما فتحت عينيها مرة أخرى، كان هناك شيء مختلف فيهما، ببؤؤا عينيها لم يعودا مستديرين، أصبحا بيضاويين، كعيني ماعز. جلست في سريرها، وابتسمت ابتسامة ليست ابتسامتها... كانت ابتسامة الناحت.

- " أبي العزيز "

قالت، لكن صوتها كان مزدوجًا، طبقتان من الصوت، واحدة لسلمى والأخرى شيء خشن.

- " حان وقت العشاء "

بعد هذا المشهد، ارتمى كريم على ركبتيه، لم يعد يبكي، كان في حالة صدمة تتجاوز الدموع، طفله الصغيرة، ابنته التي كان يحملها على كتفيه، التي علمها ركوب الدراجة، التي كانت تستيقظ من الكوابيس وتأتي لتنام في سريرها، هذه الطفلة تحولت إلى وعاء لشيء أقدم من الزمن.

ولكن في داخله، تحت جبل الحزن، اشتعلت نار الكراهية؛ كراهية باردة، نقية، مركزة، كراهية فولاذية.

نهض... ذهب إلى غرفة آدم، كان الولد مستيقظاً، جالساً في زاوية غرفته، يعانق ركبتيه.

- " آدم، اسمعني جيداً "

قال كريم بصوت هادئ وثابت...

- " أنا ذاهب إلى مكانٍ ما، إلى عمق الوادي؛ يجب أن تبقى هنا "

آدم هز رأسه بعنف، عيناه مملوءتان بالرعب، تمسك بقميص أبيه.

- " لا تخف، سأعود، وسأنهي هذا "

ولكن آدم أشار إلى فمه، ثم إلى أذنه، ثم إلى صدره... كان يحاول أن

يقول شيئاً؛ ثم، للمرة الثانية منذ الحادث، تحدث... ليس كلمة واحدة هذه

المرة، بل جملة كاملة، بصوت خشن من عدم الاستخدام :

= " لا تتركني وحدي معها "

- " من؟ "

= " الأخت التي ليست أختي "

تجمد كريم؛ فهم أن آدم يرى أكثر مما يراه هو... الطفل يرى من خلال

الأقنعة.

- " حسنًا. سنذهب معًا إلى الوادي "

ولكن عندما وصلا إلى الباب الأمامي، كان مقفلاً ليس بالمفتاح، بل بشيء آخر؛ الخشب نفسه كان منتفخاً، حياً، وفيه عروق تتبض كالأوردة، كان للمنزل نبض قلب الآن، كان المنزل حياً، وكان امتداداً للناحت.

من الطابق العلوي، كان صوت سلمى / الناحت يغني أغنية أطفال قديمة :

" يا طير يا طير في العلامي... ناحت يلحقك مهما عالي..."

الفصل الخامس

" ما يسكن تحت البيت "

لم يكن المنزل مجرد بناء مسكون؛ المنزل كما أدرك كريم في تلك اللحظة المرعبة من الليل، كان قد أصبح امتدادًا عضويًا للكيان الذي يسمى نفسه الناحت...

الجدران الحجرية القديمة كانت تتنفس؛ لم يكن هذا تعبيرًا مجازيًا، كانت الأحجار تتمدد وتنقلص بإيقاع منتظم، يتسارع كلما اقترب كريم وابنه من الباب الأمامي المغلق، من الشقوق بين الحجارة، كان سائل لزج شفاف ينز، ليس ماءً، بل سائلًا دافئًا له رائحة تشبه رائحة اللحم المتعفن تحت الشمس.

آدم كان ملتصقًا بجانب أبيه، أصابع يده الصغيرة متشبثة بقميصه، لم يعد يبكي، الدموع جفت، تاركة مكانها نظرة مركزة، ثاقبة، كنظرة شيخ عجوز في جسد طفل، منذ أن فتح فمه وتكلم، بدا أن شيئًا ما قد استيقظ في داخله... لم يكن مجرد استعادة للصوت، بل كان صحوة لشيء أعمق، شيء كان ينتظر تحت صمته طوال هذه الشهور.

- " إنه لا يريدنا أن نخرج "

قال آدم بصوت أجش.

- " إنه خائف منك، بابا "

= " خائف مني؟ "

قال كريم وهو يحاول دفع الباب المتورم.

= " أنا مجرد رجل. أنا... لا شيء "

- " لا... أنت لست شيئاً، أنت تحمل شيئاً، جدي الكبير تركه لك في

الدم "

توقف كريم... نظر إلى ابنه، كيف لطفل في التاسعة أن يعرف هذه

الأشياء؟

= " ماذا تعني؟ "

وضع آدم يده على صدره...

- " الأشياء التي لا أستطيع قولها منذ ماما... كنت أراها؛ كل ليلة، هو يأتي، يقف عند نافذتي، لكنه لا يدخل، في البداية ظننت أنه خائف من ماما، لكن ماما ذهبت، ثم عرفت، هناك شيء بك يمنعه، شيء ورثته، جدي الكبير وضع فيك مفتاحًا... المفتاح الذي يفتح الباب الذي لا يريد أن يُفتح "

كانت هذه أطول جملة ينطقها آدم في حياته، لكن طريقة نطقه بها لم تكن طفولية، كان هناك إيقاع غريب، كما لو أن طفلاً آخر يتكلم من خلاله، طفل من زمن قديم.

قبل أن يستطيع كريم أن يستوعب ما سمعه، سمعوا صوت خطوات ثقيلة على الدرج؛ كانت سلمى / الناحت تنزل الدرج ببطء، كل خطوة كانت تصدر صوتًا يشبه ارتطام كيس لحم رطب بالحجر...

وعندما ظهرت في مدخل الرواق، تجمد قلب كريم...

جسدها كان يتحول، عظامها، تحت الجلد، كانت تعيد تشكيل نفسها؛
كان طولها قد زاد بشكل ملحوظ، أطرافها أصبحت أنحل وأطول، كأنها
تتمدد من الداخل، جلد وجهها كان مشدودًا على جمجمتها لدرجة أن
عظام الوجنتين بدت كأنها ستنتقب من خلاله؛ لكن الأسوأ كان
الابتسامة، شفتها كانتا ممددتين في ابتسامة عريضة جدًا، بحيث تشققت
زوايا فمها ونزف دم أسود متجلط.

- " إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟ "

قالت، رأسها يميل بزاوية مستحيلة...

- " العشاء لم ينته بعد؛ وأنا ما زلت جائعة "

تحركت نحوهما بحركة لم تكن مشيًا، كانت انزلاقًا، قدماها لم ترتقعا عن
الأرض، بل ترحلقان على الحجر كأنهما على جليد؛ المسافة بينهما
أغلقت بسرعة، رفع كريم آدم خلفه، وواجه ما تبقى من ابنته.

- " مهما كنتِ، ومهما تكونين، أنتِ لا تزالين في جسد ابنتي "

= " جسدها؟ "

تمطّ فم الكيان في اتساع أكبر...

= " لم يعد هذا جسدها؛ إنه الآن فستاني الجديد، وأنتِ، يا أبي العزيز،

سترتدي ثوبًا من نوع آخر، ثوبًا من اللحم الحي، مخيطًا بدموعك "

مدت يدها نحوه في اللحظة التي كانت أصابعها على وشك لمس وجهه،

ارتفعت حرارة صدر كريم فجأة؛ كان كما لو أن جمرة اشتعلت تحت عظم

القص، الألم كان حادًا، لا يطاق... ارتدت يد سلمى كما لو أن تيارًا

كهربائيًا صعقها، أطلقت صرخة لم تكن بشرية مزيج من صراخ امرأة

وعواء ريح.

ترنحت إلى الخلف، ومن فمها خرج دخان أسود...

استغل كريم اللحظة؛ أمسك بيد آدم وركض نحو المطبخ القديم في مؤخرة المنزل،
كان يتذكر أن هناك بابًا خلفيًا يؤدي إلى فناء صغير ومنه إلى الوادي... خلفهما،
كان صوت الكيان يرتفع في غضب، والمنزل كله بدأ يرتجف.

- " المفتاح! "

صرخ آدم وهو يجري.

- " جدي زرع المفتاح في قلبك! لذلك لا يستطيع لمسك! "

= " ما المفتاح؟ "

- " كلمة... الكلمة التي لا يستطيع سماعها دون أن يحترق "

وصلا إلى المطبخ؛ الباب الخلفي كان مفتوحًا لحسن الحظ، أو بالأحرى، كان
متآكلًا لدرجة أن لم يعد موجودًا... خرجا إلى الفناء؛ كان القمر بدرًا، لكن ضوءه
لم يكن فضيًا كان أحمر، كلون الدم المخفف، يغسل الوادي بلون جهنمي؛ أمامهما،
كان وادي الظلال يمتد كشرخ أسود في جلد الأرض.

توقفا للحظة لالتقاط أنفاسهما... نظر كريم إلى ابنه.

- " آدم، كيف تعرف كل هذا؟ "

نظر الطفل إلى القمر الأحمر.

= " لأنه يتحدث إليّ أيضًا؛ كل ليلة يحاول أن يقنعني بأن أفتح له الباب، يريدني

أن أكون ولده، لكنني لن أفعل "

- " ولماذا لا تخبرني؟ "

= " لأن الكلمات كانت تؤلمني؛ كل كلمة أقولها، كان يأخذ جزءًا منها، لكن

الليلة... أنت كسرت شيئًا، الباب الذي في صدرك انفتح قليلًا، وهذا أخافه "

من الداخل، تصاعد صوت سلمى / الناحت في أغنية أخرى، لكن هذه المرة

الكلمات كانت مختلفة، أقدم :

" يا من تسировون في وادي الظلال... ليس لكم عند الموت من منال... تتامون في

راحتي كالأطفال... وتصحون في أمعائي حين أجال... "

- " علينا أن نذهب إلى مكان السلخ الذي رسمه جدي في الخريطة "

قال كريم، مخرجًا الورقة القديمة من جيبه...

أمسك آدم بيد أبيه بقوة.

= " ولكن سلمى؟ "

اسم ابنته اخترق قلب كريم كسكين... سلمى، صغيرته.

- " سنعود لإنقاذها "

نظر آدم إلى عيني أبيه، وفي عينيه كانت هناك معرفة قديمة مؤلمة.

(لا يمكن إنقاذ من سلخ الناحت روحه)

(ل ك ف أ ق ك ا ف ق ا ف أ ق ك ق ا ل ك الأ ل) ألم يجب كريم

رفض أن يصدق؛ كان يعرف في قرارة نفسه أن آدم قد يكون محقًا، لكن

الأمل هو آخر ما يموت، حتى في وادي الظلال وربما، خاصة في وادي

الظلال، كان الأمل هو الطعم الأخير.

الفصل السادس

"بيت الشيخ"

قادتھما الخريطة المرسومة بالدم إلى عمق الوادي، حيث لا تصل حتى أشعة القمر الأحمر؛ كان الظلام هناك كثيفًا، لزجًا، كأنه مادة لها وزن، كانا يسيران على أرض صخرية متشققة، تثبت فيها أشواك سوداء بلا أوراق، ومن بعيد كان صوت ماء يجري، لكنه لم يكن صوت جدول، كان صوت سائل أكثر كثافة، أثقل، يتحرك ببطء...

- " ما هذا الصوت؟ "

همس كريم.

= " دم "

قال آدم ببساطة مرعبة.

= " الوادي ينزف "

تابعنا السير؛ الخريطة أشارت إلى كهف ضيق عند منحني الوادي الشرقي، مدخل الكهف كان يشبه فمًا مفتوحًا، والصخور حوله كانت ملساء، مصقولة، كأن آلاف الأيدي قد لمستها عبر قرون... من الداخل، كان ضوء خافت ينبعث، ضوء أزرق مريض.

عندما دخلنا الكهف، كانت رائحة الهواء تتغير، لم تعد رائحة تراب وصخور، بل رائحة لحم محروق، وشيء آخر، أحلى، كالبخور لكنه مقزز؛ جدران الكهف كانت مغطاة بنقوش، ليست نقوش فرعونية أو بدوية، كانت نقوشًا حية، تتحرك ببطء على سطح الصخر كدود أبيض في جثة.

توقف كريم... النقوش كانت تحكي قصة.

المشهد الأول :

كان هناك شكل بيضاوي يشبه عينًا عملاقة في السماء، ومن العين كانت دموع سوداء تتساقط، حيثما سقطت الدموع، نمت كائنات مسننة.

المشهد الثاني :

الكائنات كانت تحيط بشكل بشري، إنسان بدائي، وتهمس في أذنيه؛ من رأسه كانت تخرج فقاعات بداخلها مشاهد حرب وقتل.

المشهد الثالث :

شكل كبير، يمكن تمييزه كالناحت، يقف على تل من الجثث؛ في يديه كانت هناك خيوط متصلة برؤوس البشر كالدمى.

- " هذا هو "

قال آدم مشيرًا إلى الشكل الكبير .

- " هذا ما يفعله، هو لا يقتل، هو يحول "

= " يحول إلى ماذا؟ "

قبل أن يجيب آدم، سمعوا صوتًا من عمق الكهف؛ صوت امرأة، تغني

تهويذة، لحن بسيط، حزين.

- " نامي يا عيون الناس... نامي... بكُرةً بتصحى عالأحزان... نامي "

كان صوت مريم.

تقدم كريم إلى الأمام بخطوات مترنحة.

- " مريم؟ "

في نهاية الكهف، كانت هناك قاعة واسعة مضاءة بالضوء الأزرق؛ في وسطها، كان هناك شيء يشبه بركة ضحلة من سائل أسود لامع، على حافة البركة، كانت امرأة تجلس، كان ظهرها لهما... شعرها الأسود الطويل كان منسدلاً، متشابكاً بأزهار ذابلة.

- " مريم! "

ركض كريم نحوها... وحين أوشك أن يلمسها، استدارت.

كان وجهها وجه زوجته، لكن العينين... كانتا مقلوبتين؛ بياض العين كان في الداخل، والبؤبؤان مكان البياض الطبيعي، ومن فمها، بدلاً من الأسنان، كان هناك صفوف من الإبر المعدنية الدقيقة.

- " حبيبي "

قالت بصوت مريم.

- " لماذا تأخرت؟ كنتُ أجهز السرير "

أشارت إلى البركة السوداء؛ السائل كان يتحرك، وفجأة، طفت على سطحه وجوه، وجوه أناس ماتوا منذ زمن طويل، وجوه كان بعضها لا يزال يصرخ، تحت السطح مباشرة، عالقين في لحظة الموت الأخيرة.

- " بركة الذاكرة "

همس آدم من خلف أبيه.

- " كل من سلخهم الناحت هنا "

في تلك اللحظة، تحولت مريم؛ جلدها انسلخ فجأة، وسقط على الأرض كقطعة قماش، وما تبقى كان شكلاً بلا جلد، كتلة من العضلات والعروق والعظام، وقف وأطرافه انعكست وارتخت في حركة عنكبوتية.

- " الآن، يا دكتور كريم "

قال الشكل بصوت الناحت.

- " بما أنك أتيت إلى هنا، دعني أريك ما حدث حقًا لجديك؛ دعني أريك
الصفقة الحقيقية "

دفع الشكل يده في البركة، السائل الأسود ارتفع كموجة، وتحول إلى
شاشة عرضت الماضي....

الفصل السابع

" صفقة الجر "

في شاشة السائل الأسود، رأى كريم جده (إبراهيم الشاذلي) كما لم يراه أحد من قبل؛ ليس كعجوزٍ محطم، بل كشاب في الأربعين، قوي البنية، يرتدي جلبابًا ريفيًا، كان راكعًا في هذا الكهف نفسه، أمام شكل الناحت الذي كان وقتها أكثر بدائية، أكثر وحشية، كتلة من الأفواه والأطراف.

- " أنت تعرف ما أريد "

قال الشاب إبراهيم بصوت يملؤه اليأس.

- " أنقذهم... أنقذ زوجتي وطفلي من الطاعون، خذ ما تريد "

همهمة عميقة ملأت الكهف.

= " أريد شيئًا لن يعيش إلا بعد أربعين عامًا؛ أريد حفيدتك البكر، أريد

سلمى، سادع روحها غصة، طرية، تنمو بعيدًا عني، وعندما تبلغ،

سترجع إليّ، سأحمي عائلتك من كل شر حتى ذلك اليوم "

- " لماذا تريدها؟ "

= " لأنها ستحمل في بطنها ما لم يحمله أحد منذ ألف عام؛ ستحمل

جسدي الجديد، الجسد الذي سأخرج به من هذا الوادي إلى العالم "

ارتجف إبراهيم، كان يمكنه أن يرفض، كان يمكنه أن يضحى بزوجه

وولده، لكنه كان ضعيفًا، أحب أكثر مما يجب...

- " أقسم أنها لن تعاني؟ "

= " أقسم أنها ستبتسم حتى آخر نفس "

وهكذا، قطع إبراهيم كفه بالسكين، وترك الدم يقطر في البركة، الصفقة

عقدت، ركض عائداً إلى قريته.

وجد زوجته وولده قد تعافيا بأعجوبة؛ الطاعون توقف، الجميع اعتبره

معجزة، لكن في تلك الليلة نظر إلى ابنه الرضيع، والد كريم المستقبلي،

ورأى في عينيه ظل الناحت الصغير... البذرة زرعت.

بعد أربعين سنة، مات إبراهيم بهدوء؛ لم يمت حقًا، سلخ الناحت روحه، لكنه احتفظ بها في البركة، في كل ليلة، كان صوت إبراهيم يصرخ تحت السائل الأسود، يطلب الصفح.

- " لذلك كان الناحت يريدك أن ترحل "

قال الشكل اللحمي.

- " لم يكن يريدك أن تكتشف أن جسد ابنتك ليس ملكًا لها؛ كان ملكًا له دائمًا، منذ قبل أن تولد، وقبل أن يولد أبوك، أنت فقط أحضرتها إلى هنا، كنت التوصيلة الأخيرة "

في تلك اللحظة، صرخ آدم، لكنها لم تكن صرخة خوف... كانت صرخة غضب؛ تقدم الطفل الصغير نحو الكيان، ويداه الصغيرتان مشدودتان في قبضتين.

- " أنت كاذب! "

قال بصوت يجلجل في الكهف.

- " جدي لم يبع سلمى فقط؛ لقد أخفى شيئاً أيضاً، الكلمة، الكلمة التي

تقتلك، الكلمة التي أخفاها في دم أبي! "

تراجع الشكل اللحمي خطوة.

= " الكلمة لا وجود لها... مجرد خرافة "

- " الكلمة موجودة "

قال آدم، وتحولت عيناه فجأة إلى اللون الذهبي.

= " وأنا أعرفها "

انفتح فم آدم، وبدأ يتكلم... لكن ما خرج من شفثيه لم يكن صوتاً بشرياً.

كان تردداً، موجة صوتية شعر بها كريم في عظامه قبل أن تسمعها

أذناه؛ كانت الكلمة هي اسم الله الأعظم، لكن ليس بنطق بشري...

كان النطق الأصلي الذي نطق به آدم أبو البشر يوم خلقت روحه...
الكلمة التي تسجد لها الملائكة.

عندما لامست الكلمة هواء الكهف، بدأ الشكل اللحمي في الاهتزاز
بعنف؛ سطحه تشقق، وخرج منه ضوء أبيض حارق، البركة السوداء
بدأت تغلي، الوجوه في داخلها صرخت بفرح وألم معًا.

- " أوقفوه! "

صرخ الناحت من حنجرة الشكل اللحمي.

من الظلال في أركان الكهف، ظهرت أشكال أخرى؛ مسوخ كانوا يومًا
بشرًا، قرويون ماتوا منذ عقود، الآن أصداف فارغة تحركها إرادة الناحت؛
كانوا يزحفون، يجرون أطرافهم المكسورة، عيونهم مسودة، أفواههم مفتوحة
في صرخات صامتة.

- " آدم! استمر! "

صرخ كريم، واقفًا بينهم وبين ابنه.

لم يكن معه سلاح سوى قبضتيه؛ لكن شيئًا ما حدث، عندما لمست أول يد مسخ صدره، اشتعلت الحرارة في عظم القص مرة أخرى، لكن بقوة أكبر هذه المرة... صدره توهج بضوء ذهبي تحت قميصه.

صرخ المسخ وارتد محترقًا...

أدرك كريم حينها، آدم قال الحقيقة... كان هناك مفتاح مزروع فيه؛ جده إبراهيم، في آخر عمل له ضد الناحت، زرع الكلمة المقدسة في دم نسله، خط دفاع أخير ليس لإنقاذ سلمى، بل لقتل الناحت نفسه...

لكن الكلمة الكاملة تحتاج إلى إناءين؛ آدم يحمل النطق، وكريم يحمل الجوهر، كانا معًا سلاحًا...

- " يا بني، معًا! "

صرخ كريم، واضعًا يده على كتف آدم.

شعر كريم بالطاقة تتدفق منه إلى ابنه؛ آدم فتح فمه على اتساعه،
وصدر كريم اشتعل كشمس صغيرة...

الكلمة ترددت مرة أخرى، لكنها كانت الآن أقوى، أوضح، وأكثر تدميرًا...

جدران الكهف تصدعت، البركة السوداء تبخرت، الأشكال المسخية
انهارت وغبارًا، الشكل اللحمي صرخ صرخة هزت أساسات الوادي،
وانفجر في سحابة من الرماد الأسود، للحظة، ساد الصمت.

ثم، من عمق الرماد، سمعوا صوت الضحك...

ضحكة ناعمة، رقيقة، ضحكة امرأة...

منتصبًا من كومة الرماد، كان هناك الشكل الحقيقي للناحت؛ ليس
وحشًا، بل امرأة، امرأة جميلة جدًا، بجسدٍ عارٍ، مغطى بكتابات متوهجة.
وجهها كان وجه مريم، وجه سلمى، وجه كل امرأة في عائلة الشاذلي.

- " أحسنتم "

قالت بصوت كالموسيقى.

- " لقد حطمتم الوعاء؛ حررتموني من الشكل المشوه "

= " ما... ما أنت؟ "

قال كريم بصوت متحشرج.

- " أنا ما تبقى من الملائكة الذين بكوا على الإنسان؛ أنا دموعهم التي

سقطت على الأرض وتحولت إلى هذا، أنا حزن الله المتجسد، لا يمكن

قتلي بالكلمات المقدسة، لأنني خلقت قبلها "

مدّت المرأة يدها في يدها، تشكّل خنجر من ضوءٍ أسود...

- " والآن، سأريكم ما هو الألم الحقيقي "

الفصل الثامن

" تشرح الألم "

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه دون أن تتقطع أنفاس القارئ؛ لكن يجب أن يُروى، لأن هذه هي الحقيقة التي أُخفيت في وادي الظلال.

أمسكت المرأة الناحت بكريم بقوة لا يمكن مقاومتها؛ لمستها جعلت عظامه ترتج، سحبته إلى وسط القاعة المدمرة، حيث بقايا البركة.

- " أنت تظن أن الألم هو فقدان الأحبة، أنت مخطئ "

قالت وهي تمسك بفكه...

- " الألم هو أن تفقد أحبتك، لكنهم لا يموتون، يتحولون إلى شيء آخر، وأنت تشاهدهم وهم يتألمون، إلى الأبد... "

رفعت الخنجر الأسود، كان طويلاً، ربيعاً، مصنوعاً من مادة تشبه الزجاج البركاني لكنها تمتص الضوء.

- " سأريك "

بسرعة مربعة، غرست الخنجر في صدر كريم؛ ليس في قلبه، بل إلى
يساره، حيث كانت الحرارة تَشع...

- " هذا هو المفتاح الذي زرعه جدك... سأستأصله "

الألم كان أبعد من أي شيء يمكن للعقل البشري إدراكه؛ لم يكن جسدياً
فقط، كان كأنما كل ذكرى جميلة، كل لحظة حب، كل أمل، يُنزع من
روحه مع هذا الشيء، خرج الضوء الذهبي من جرح صدره، وتجمع في
يد الناحت كبلورة صغيرة.

- " ها هو، الكلمة، الآن أصبحت ملكي؛ سأستخدمها لأخلق عالمي
الخاص "

رمت كريم على الأرض وهو يتشنج في دمه... ثم التقت إلى آدم.

- " أما أنت، أيها الطفل العجيب، أنت مختلف؛ أنت لم تولد بالصدفة، أنت كنت خطتها الحقيقية، جدك لم يزرع في أبيك فقط، لقد زرع في نسل أبيك شيئاً أكبر، أنت تحمل في حنجرتك الصوت الأول، صوت آدم قبل الخطيئة، ولذا سأحتفظ بك، سأرييك، ستصبح ابني، إلهي الصغير "

مدّت يدها إلى آدم؛ الطفل تراجع، لكن جدران الكهف تحركت وأغلقت عليه.

- " وماذا عن سلمى؟ "

قال كريم من على الأرض، صوته يضعف.

- " لقد وعدت بأنها لن تعاني "

ابتسمت الناحت...

= " وهل عانت حتى الآن؟ لقد أعطيتها ما تريد حبيباً، طفلاً، مستقبلاً...

تعال وانظر "

بحركة من يدها، انفتح شق في جدار الكهف، يظهر مشهداً من غرفة سلمى في المنزل؛ لكن الغرفة لم تكن كما تركوها، كانت مليئة بالشرانق، شرانق لحمية ضخمة تتبض، في إحداها، كانت سلمى مستلقية، كانت تتبسم، لكن جسدها كان يتغير، بطنها الضخم كان يتمزق من الداخل، وأطراف صغيرة سوداء تخرج من التمزق، ليست أطفالاً، بل أشياء صغيرة بوجوه بشعة تشبه الديدان ذات العيون، كانت تضحك بينما تلتهمها من الداخل.

- " سلمى! "

صرخ كريم.

في المشهد، سمعت سلمى صرخته؛ التفتت نحو الشق، عيناها كانتا لا تزالان عينيها الأصليتين، مملوءتين بدموع وألم لا يوصف.

- " بابا... خلصني... الجوع... الجوع شديد... هم يأكلون... "

ثم، من فمها، بدلاً من الكلمات، خرجت مئات الحشرات السوداء الصغيرة، أغلقت الشق...

- " هذه هي الهدية التي وعدتها "

قالت الناحت.

- " أن تلد الأبد، أن تصبح أمًا للموت "

شيء ما انكسر في كريم، ليس الأمل، بل الإنسانية نفسها، النور الأخير في قلبه...

ولكن في لحظة الانهيار هذه، حدث ما لم تتوقعه الناحت.

آدم، الطفل المحاصر بين الجدران، بدأ يغني...

لم تكن الكلمة المقدسة، كانت أغنية، تهويده، نفس التهويده التي كانت سلمى تغنيها، لكن بنغمة مختلفة، نغمة حزينة جدًا، عميقة جدًا، اهتز لها حتى الكهف.

الناحت تجمدت.

- " ما هذا؟ "

= " هذه أغنية جدتي التي لم أولد بعد "

قال آدم.

= " لقد علمتني إياها في أحلامي، إنها أغنية الموت الحقيقي، الموت

الذي لا بعث بعده "

استمر في الغناء، وفي الغناء، كان هناك سلاح لم تفهمه الناحت؛ لأنها

ككيان من الحزن والغضب الإلهي، لا يمكنها فهم شيء؛ التضحية.

التضحية التي تأتي من حبٍ نقي، لا طلب فيه.

بينما كان يغني، كان آدم ينظر إلى أبيه؛ عيناه كانتا تقولان ما لا

تستطيع الكلمات قوله :

- " أحبك. وداعًا "

ثم، من فمه، بدل الكلمات، خرج ضوء؛ نفس الضوء الذهبي الذي كان في صدر كريم، لكنه لم يكن مزروعًا، كان أصليًا... كان آدم هو الكلمة كان المفتاح الحي.

الضوء ارتفع من فمه، وتحول إلى كرة من اللهب الأبيض، الكرة طارت نحو الناحت، وعندما لمستها، لم تحترق، بدأت في الامتصاص؛ الناحت كانت تُسحب إلى داخل الكرة، جزيئًا جزيئًا.

- " لا! هذا لا يمكن! أنا أبدية! "

صرخت...

= " نعم "

قال آدم بصوته الأخير.

= " لكنني لست أبدية؛ أنا فانٍ، وأنا سأدخلك معي إلى فناء البشر، حيث

لا خلود "

الكرة تقلصت؛ الناحت صرخت صرخات هزت عوالم...

ثم، فجأة، انفجرت الكرة في صمت.

اختفى كل شيء؛ الكهف عاد إلى ظلامه، كريم كان على الأرض، جريحًا، يحتضر، آدم كان واقفًا، لكن جسده بدأ يتلاشى، كأنه مصنوع من رمادٍ في مهب الريح.

- "آدم! لا!"

بكي كريم.

الطفل الذي بقي كان مجرد ظل لطفل، كأنه آخر أثر لصوت طفل في التاسعة من عمره، لم يرتكب ذنبًا قط...

الطفل التفت إليه، كان يبتسم ابتسامة طفل صغير، طفل في التاسعة من عمره، لم يرتكب ذنبًا قط.

- " لا تبكي يا بابا، أنا لم أمت، أنا فقط ذهبت لأكون مع ماما، ومع سلمى، سننتظرك هناك "

= " لا أريدكم أن تنتظروني! أريدكم هنا! "

- " نحن هنا دائماً، في قلبك "

ثم تلاشى آدم... لم يبقَ منه إلا الغبار الذهبي الذي حمله الهواء من الكهف إلى الخارج.

كريم بقي وحيداً، وحيداً تماماً؛ الجرح في صدره كان ينزف، لكن الألم الأكبر كان في روحه، ابنته تحولت إلى وعاء للرعب، ابنه ضحى بنفسه لإنقاذ العالم، زوجته استخدمها الكيان كدمية، جده كان سبب كل هذا؛ الحياة كانت مستحيلة الآن.

زحف كريم إلى خارج الكهف، الفجر كان ييزغ على وادي الظلال، لأول مرة منذ عقود، كانت الشمس تشرق على الوادي ضوءها كان دافئاً.

في طريقه إلى المنزل، وهو يسحب نفسه على الصخور، كان يخطط لما سيفعله...

الفصل التاسع

"جسد بلو روح"

وصل كريم إلى المنزل مع بزوغ الفجر؛ كان يزحف أكثر مما يمشي، الجرح في صدره لم يعد ينزف، لكنه كان مفتوحًا، والهواء البارد يلسع اللحم المكشوف، كان يضع يده عليه ليحافظ على ما تبقى من دفء جسده، كانت الشمس تشرق على تل العزلة لأول مرة منذ أيام، لكن ضوءها لم يكن دافئًا كان باردًا، أبيض، يشع كأنه يعتذر عن شيء.

المنزل كان صامتًا... الصمت كان أثقل من أي ضجيج، الباب الأمامي الذي كان حيًا من قبل، أصبح الآن خشبًا ميتًا، متآكلًا، متصدعًا... دفعه كريم فانفتح بسهولة، كما لو أن المنزل قد تخلّى عن إرادته بعد زوال الناحت.

في الداخل، كان كل شيء كما تركوه، لكن الغبار كان أكثر كثافة، كأن سنين مرت لا ساعات؛ رائحة التعفن كانت تخنق، خطا نحو الدرج بصعوبة، كل خطوة كانت معركة، كان يريد أن يرى سلمى، كان يريد أن يعرف.

في غرفة سلمى، كان المشهد يتجاوز كل كابوس...

الشرانق اللحمية التي رآها في رؤية الكهف كانت حقيقية... كانت معلقة من السقف، من الجدران، تنبض ببطء؛ بعضها كان شفافاً يظهر بداخله أشكالا صغيرة ملتقة ترتعش، لكن معظمها كان ممزقا، من التمزقات تسرب سائل أسود لزج على الأرض، مكوناً برگا صغيرة تدب فيها ديدان بيضاء عمياء.

وفي وسط الغرفة، على سريرها، كانت سلمى...

لم تمت... كانت مستلقية على ظهرها، عيناها مفتوحتان تنظران إلى السقف؛ بطنها المنتفخ كان لا يزال يتحرك، لكن بشكل أبطأ، الشيء الذي كان بداخلها لم يخرج، كان ينتظر، أو ربما كان يحتضر.

- "سلمى..."

همس كريم، راکعاً بجانب سريرها.

رمشت عيناها ببطء؛ البؤبؤان لم يعودا بيضاوين، عادا إلى شكلهما الطبيعي، كانت تنتظر إليه بعيني طفلتها الصغيرة، المملوءتين بألم لا يمكن وصفه.

- " بابا... "

صوتها كان صوتها الحقيقي.

- " أنا... عادتني... "

= " نعم يا حبيبتني عادتِك؛ الناحت ذهب "

هزت رأسها ببطء.

" لا... لم يذهب؛ أنا... أسمعها في بطني، هم يصرخون، يريدون أن

يخرجوا "

انهمرت دموع كريم على وجهه.

- " سنخرجهم؛ سنذهب إلى المستشفى "

" لا مستشفى "

قالت بصوت خافت.

" لقد أردتني أن أعيش لأراهم... لأعرف ماذا سألد، لأتألم أكثر، هذه

هي هديتها الأخيرة "

في تلك اللحظة، تحرك بطنها بعنف... تقوس ظهرها، وصرخت؛ من

بين ساقبها تسرب سائل أسود.

ثم بدأ شيء في الخروج.

لم يكن طفلاً... كان كتلة من الأطراف الرفيعة المكسوة بشعيرات سوداء

دقيقة؛ له رأس صغير جدًا، بعيون متعددة، وفم دائري مليء بأسنان

إبرية، كان بحجم قطعة صغيرة؛ زحف خارج جسدها، وسحب معه حبله

السري الأسود، ثم توقف، نظر إلى كريم بعيونه المتعددة... ثم صرخ

صرخة حادة مزعجة كصوت مسمار على زجاج؛ ثم مات...

تبعه آخر، وآخر. ثلاثة من هذه الكائنات خرجت من جسد سلمى، وكلها ماتت بعد صرختها الأولى... لم تكن قابلة للحياة، العالم لم يكن جاهزاً لها بعد.

لكن سلمى، بعد آخر واحد، استرخت؛ عيناها أغلقتا، تنفسها أصبح ضحلاً.

- "سلمى! ابقى معي!"

فتحت عينيها لآخر مرة.

= "أنا ذاهبة إلى آدم... وإلى ماما..."

- "لا... لا تتركيني، أنت كل ما تبقى لي"

= "بابا... لا تحزن، أنا لم أعد أحتك، أنا مجرد... قشرتها"

ثم ماتت... بين ذراعي أبيها ماتت سلمى، عيناها بقيتا مفتوحتين تنظران إليه حتى بعد أن غادرتها الروح.

جلس كريم هناك حاملاً جسد ابنته لساعات... الشمس ارتفعت ثم بدأت تهبط؛ الظلال تمددت في الغرفة، الذباب بدأ يحوم، لكنه لم يتحرك... كان عقله قد أغلق، والروح لم تعد قادرة على الاحتمال.

أخيراً، عندما غربت الشمس تماماً، نهض؛ وضع جسد سلمى على السرير بهدوء، غطاها بالملاءة.

قبل جبهتها الباردة... ثم نزل إلى الطابق السفلي، خطواته ثابتة ميكانيكية.

ذهب إلى مكتبة جده، جلس على الكرسي، فتح الدرج، كان المسدس القديم لا يزال هناك، تماماً كما تركه جده، مسدس لم يُستخدم قط.

المفارقة : " جده استخدم الموت كصفقة، وهو سيستخدم الموت كمهرب "

لكن قبل أن يضغط على الزناد، سمع صوتاً من زاوية المكتبة؛ صوت تقليب صفحات.

- " لم تتعلم شيئاً؟ "

قال الصوت.

استدار كريم... في الزاوية المظلمة من الغرفة، كان هناك شخص جالس

على كرسي، شيخ عجوز، بجلد متغضن، وعينين ذهبيتين.

- " جدي؟ "

همس كريم.

= " لا... أنا لست جدك، أنا ما زرعه جدك فيك، المفتاح الذي استُؤصل

من صدرك، لكنه نَمَّا مجددًا "

- " ماذا تريد؟ "

= " أريدك ألا تموت، ليس بعد "

الفصل العاشر

"قيامه الظلال"

- " الموت هو ما يريده "

قال الكيان الجالس على الكرسي.

- " الناحت لم يمُت، أنا وأنت نعرف هذا، هو كيان أبدي، طفلك الصغير ضحى بنفسه ليحبسه في الفناء البشري، نعم... لكنه لم يقتله، هو الآن مسجون في بقايا جسد ابنتك، في تلك الكائنات الميتة، في دماؤها المسفوكة على الأرض "

نظر كريم إلى الكيان.

= " ماذا تقول؟ "

- " أقول إن توضيحتك لم تنته، تريد أن تموت؟ ستموت... لكن موتك سيكون بلا معنى؛ الناحت سيعود، بعد سنين، بعد قرون، سيجد جسدًا آخر وسيبدأ مجددًا... لكن هناك طريقة لإنهاءه نهائيًا "

= " كيف؟ "

- " بأن تذهب إلى حيث لا يريد أن تذهب؛ إلى مكان السلخ الحقيقي،
ليس الكهف، الكهف كان مجرد مدخل، المكان الحقيقي هو تحت
المنزل... تحتنا الآن "

نظر كريم إلى أرضية المكتبة الحجرية.

= " تحت المنزل؟ "

- " نعم... في الأعماق، حيث النسيج بين العوالم رقيق، حيث سقطت
الدموع الإلهية لأول مرة، هناك يمكنك أن تمزق النسيج، أن تحرق كل
شيء، لكن هذا يعني... "

= " أن أموت أنا أيضًا "

- " ليس فقط أن تموت... أن تتمحق، أن تمسح من الوجود، لا جنة،
ولا نار، ولا بعث، عدم مطلق "

كان كريم صامتاً... فكر في سلمى، وفي آدم، وفي مريم؛ هل كانوا في مكان ما، ينتظرونه؟ إذا مَحَا نفسه، ألن يلتقي بهم أبداً؟

- " لكنك ستأخذ الناحت معك "

قال الكيان.

- " ستكون التضحية الأخيرة، ستكمل ما بدأه ابنك "

= " من أنت حقاً؟ "

الرجل العجوز ابتسم.

- " أنا ما تبقى من ضمير جدك... الجزء الذي ندم على صفقة، الجزء

الذي زرع الكلمة في دم نسله، أنا آخر خيط من الخير في هذه العائلة

الملعونة "

وقف كريم... الجرح في صدره كان ينزف مجدداً، لكن الحرارة بدأت تعود

إليه...

= " أرني كيف أصل إلى هناك "

أشار الرجل العجوز إلى الأرضية.

- " تحت البساط... هناك باب "

سحب كريم البساط الفارسي القديم، تحته كان هناك باب فخ في الأرضية
الحجرية، بحلقة حديدية.

فتحه درج حلزوني ضيق، نزل إلى ظلام لم يمسه نور منذ دهور.

- " خذ هذا "

قال الرجل العجوز، ممدًا يده، في يده كانت قطعة زجاج سوداء حادة.

- " خنجر مصنوع من نفس مادة دموع الملائكة؛ الشيء الوحيد الذي

يمكن أن يمزق النسيج "

أخذ كريم الخنجر... كان باردًا جدًا لدرجة أن أصابعه تخدرت.

= " لن أعود، صحيح؟ "

- " لن تعود، لكنك ستتقذ العالم من شر كان سيلتهمه "

أوماً كريم برأسه... كان السلام يغمره، سلام غريب؛ سلام من يعرف أن
لا شيء يهم بعد الآن.

نزل الدرج الحلزوني، خلفه تلاشى الرجل العجوز، تاركًا وراءه فقط همسة :

" سامحني يا حفيدي "

الفصل الحادي عشر

"أم الدمى"

الدرج نزل إلى عمق أكبر مما توقعه كريم، بدا أنه يسير لساعات، الجدران حوله كانت في البداية من الحجر المنحوت، ثم أصبحت من الصخر الطبيعي، ثم من مادة لم تكن صخرًا ولا ترابًا؛ كانت مادة رمادية، ملساء، دافئة عند اللمس، كانت تشبه اللحم.

أخيرًا، وصل إلى قاعة شاسعة، كانت مختلفة تمامًا عن كهف الناحت، تلك كانت بدائية هذه... هذه كانت متقدمة؛ الجدران كانت مغطاة بشبكة من العروق السوداء التي تنتبض بضوء أزرق خافت.

الأرض كانت مغطاة بسائل شفاف لزج، درجة الحرارة كانت دافئة، رطبة، والهواء كان يحمل رائحة حلوة متخمة.

في وسط القاعة كان هناك ما يشبه العرش لكنه لم يكن مصنوعًا من حجر أو معدن، كان مصنوعًا من عظام... عظام بشرية مرتبة بشكل فني معقد، على العرش جلست امرأة... امرأة جميلة جدًا، شعرها الأسود الطويل كان يطفو حولها كأنها تحت الماء، عيناها كانتا مغلقتين.

جسدها كان عاريًا، لكنه مغطى بكتابات متوهجة؛ كانت المرأة الناحت لكنها بدت نائمة، أو في حالة سبات.

حول عرشها كانت هناك أشكال أخرى؛ ليسوا مسوخًا، كانوا دمي، دمي بحجم البشر، مصنوعة من قماش قديم متسخ، لكنها كانت تتحرك، كانت ترقص رقصة بطيئة دائرية، كانت وجوه الدمى مطرزة بابتسامات، خيوطها كانت متصلة بأصابع المرأة النائمة.

اقترب كريم بحذر... الدمى لم تمنعه، استمرت في رقصها.

ثم واحدة من الدمى توقفت، استدارت نحوه، وجهها القماشي كان ممزقًا قليلاً عند الفم، يظهر تحته شيء لامع... نظر كريم عن كثب.

تحت قماش الوجه كان هناك وجه بشري حقيقي، محنط، بعينين زجاجيتين...

الدمى كانت بشرًا، بشرًا حقيقيين، حولهم الناحت إلى دمي له...

ثم رأى وجهًا مألوفًا، دمية بجلباب ريفي، وجهها كان وجه جد إبراهيم،
عيناه الزجاجيتان كانتا مفتوحتين على مصراعيهما، وفمه القماشي مطرز
بابتسامة عريضة...

- " جدي... "

همس كريم...

الدمية التي كانت جده توقفت عن الرقص، مدت يدها القماشية ولمست
خد كريم، اللمسة كانت جافة، خشنة، ثم عادت إلى رقصها.

= " إنهم مجموعتي "

قالت المرأة على العرش فجأة دون أن تفتح عينيها...

= " كل من صفق معي، كل من اشترى مني شيئًا، كلهم أصبحوا ممثلين

في مسرحيتي الأبدية "

تحمد كريم...

- " أنتِ مستيقظة؟ "

= " كنت دائماً مستيقظة، أنا لا أنام، أنا فقط أظاهر، أحب التظاهر،
هذا ما أنا عليه "

فتحت عينيها؛ كانت عيناها طبيعيتين هذه المرة، بلون بني دافئ،
ابتسمت.

= " تفهم الآن، أليس كذلك؟ كل هذا كان مسرحية منذ البداية، منذ
جذك، ومنذ موت زوجتك، ومنذ مرض ابنتك، كلها مشاهد "

- " لماذا؟ "

= " لأن الألم له نكهات، المأساة المفاجئة لها طعم واحد، لكن المأساة
التي تبني نفسها، فصلاً فصلاً، أملاً ينقطع بعد أمل... هذه لها طعم
معنق، وأنا ذواقه "

(ا ف ك ال ف كا ذا كل الا آ ل كا)

ارتجف كريم... الخنجر في يده كان يخدر ذراعه كلها الآن.

- " آدم... تضحيته... هل كانت... "

= " جزءًا من المسرحية؟ نعم... الطفل كان ممثلًا رائعًا، أليس كذلك؟

الكلمة المقدسة، الإناء الذي يحملها... كلها سيناريو كتبته له، أعطيته

القوة، أعطيته الأمل، وأعطيته اللحظة البطولية، لأن هزيمتك بعد كل هذا

ستكون... ألد "

- " هزيمتي؟ لم يحدث بعد "

= " لم يحدث؟ "

ضحكت المرأة...

= " أنت هنا، في قلبي، تحمل سلاحًا لن تستخدمه "

- " سأستخدمه "

= " لتمرزق النسيج؟ لتمرزقني؟ "

اتسعت ابتسامتها...

= " وهل سألت نفسك لماذا أعطاك إياه (ضمير جدك) ؟ "

تجمد كريم...

- " ماذا... "

= " ضمير جدك كان أنا، أنا الذي أرسلته إليك، أنا الذي أعطيتك

الخنجر "

نظر كريم إلى القطعة الزجاجية السوداء في يده؛ كانت تشع بردًا.

= " هذا الخنجر لا يمزق النسيج، هذا الخنجر يوسّعه، إذا غرزته في

الأرض هنا، ستفتح بوابة... بوابة سأخرج منها من هذا الوادي الضيق

إلى العالم كله؛ كنت مسجونًا هنا منذ آلاف السنين، أحتاج إلى إنسان،

من سلالة من باعوا لي أرواحهم، ليفتح الباب بإرادته، جدك رفض، أبوك

لم يكتشف الحقيقة... بقيت أنت "

- " لا "

قال كريم بصوت خافت.

- " لن أفتحه "

= " ستفتح... لأنه ليس لديك خيار "

أشارت بيدها من الظلال، خرجت أشكال، ليست مسوَّخًا، كانوا الثلاثة

(مريم، سلمى، آدم) لكنهم لم يكونوا هم، كانوا أصدافًا فارغة تحركها

إرادة الناحت، عيونهم كانت فارغة، حركاتهم كانت متشنجة.

= " إذا لم تفتح الباب، سأجعلهم يعانون إلى الأبد هنا، سأجعلهم

يصرخون بلا توقف، لن يموتوا أبدًا، سيكونون دميتي المفضلة "

تقدمت مريم نحوه، وجهها كان بلا تعبير لكن فمها فتح، وخرجت

صرخة، صرخة امرأة تحترق حيّة، صرخة لا تتوقف...

- " حسنًا! حسنًا! "

صرخ كريم...

توقفت الصرخة...

- " سأفتح الباب، لكن أطلقهم "

= " بالطبع... بمجرد أن أخرج، سأطلقهم، ليس لدي استخدام لهم بعد

الآن "

عرف كريم أنها تكذب، لكنه كان محاصرًا...

رفع الخنجر؛ كان باردًا جدًا لدرجة أن يده أصيبت بصقيع، نظر إلى

زوجته، ابنته، ابنه، لم يكونوا هم... لكنهم كانوا كل ما تبقى له؛ همس :

- " سامحوني "

ثم غرز الخنجر في الأرض...

الفصل الثاني عشر

"تمزق"

عندما اخترق الخنجر الأرض، لم يكن هناك صوت... بل كان هناك صمت، صمتًا عميقًا، مطلقًا، ابتلع كل شيء، ثم بدأت الأرض في التصدع.

التصدعات انطلقت من نقطة الخنجر في كل الاتجاهات، مشعة ضوءًا أسود... ليس ظلامًا، بل ضوء أسود، نور له ثقل من التصدعات، بدأ شيء في الصعود، ليس كائنًا، بل غيمة... غيمة من الفراغ. المرأة الناحت وفتت على عرشها، ذراعاها ممدودتان، تضحك.

- " أخيرًا! بعد آلاف السنين! العالم! العالم سيكون ملكي! "

الغيمة السوداء بدأت تتمدد، تملأ القاعة؛ كريم كان راكعًا، غير قادر على الحركة، البرد من الخنجر تجمد في ذراعه، ثم كتفه، ثم صدره، كان يتحول إلى جليد.

الدمى توقفت عن الرقص، سقطت على الأرض، أكوامًا من القماش
والعظام... والثلاثة أشباح (مريم، سلمى، آدم) وقفوا ساكنين، ينظرون
إليه...

ثم فجأة، تحرك آدم، ليس بحركة متشنجة كالمسوخ، بل بخطوة بشرية.
اقترب من أبيه، عيناها الفارغتان امتلأتا بالضوء الذهبي.

- " بابا... "

قال بصوت حقيقي.

- " لم تنسني "

= " آدم؟ "

- " الناحت يكذب دائماً، لكن تضحيتي كانت حقيقية، الكلمة ما زالت
فيك، أنا زرعته فيك قبل أن أموت... هناك، في الجرح الذي في
صدرك، إنها تنمو "

نظر كريم إلى الجرح في صدره، كان لا يزال مفتوحًا، لكن بداخله، كان هناك ضوء ذهبي خافت.

- " الكلمة ليست سلاحًا للقتل، الكلمة هي للإغلاق... استخدمها الآن، أغلق الباب "

= " لكنني سأموت "

- " كلنا سنموت، لكن موتك سيغلق الباب "

وقف كريم بصعوبة، الجليد في ذراعه كان يزحف، الوقت كان ينفد، نظر إلى الغيمة السوداء التي كانت تتمدد، وإلى المرأة الناحت التي كانت تتحول إلى شيء أكبر، شيء بلا شكل، يندمج مع الغيمة.

وضع يده على الجرح في صدره. الألم كان لا يُطاق، ثم نطق...

لم تكن الكلمة العربية، لم تكن أي لغة بشرية، كانت التردد الذي استخدمه آدم، خرجت من فمه بصعوبة، ممزقة حنجرته، لكنها خرجت...

اهتزت القاعة، جدران اللحم انكمشت، الغيمة السوداء تجمدت...

- " لا! "

صرخت الناحت.

- " لا يمكنك! "

استمر كريم في النطق، الكلمة كانت تحرقه من الداخل، شعر بأمعائه
تشتعل، عظامه تتشقق، لكنه استمر.

الغيمة السوداء بدأت في الانكماش، والتصدعات في الأرض بدأت
تغلق... المرأة الناحت كانت تُسحب إلى الداخل، إلى التصدع الرئيسي،
تصرخ.

= " ستموت معي! "

صرخت.

- " أعرف "

قال كريم بين نطقه للكلمة.

- " وهذا كل ما أريده الآن "

نظر إلى أشباح عائلته؛ آدم كان يبتسم، ومريم كانت تبكي، وسلمى كانت تضيء.

- " تعال يا بابا "

قالت سلمى،

- " نحن في انتظارك "

التصدع الرئيسي أغلق بزئير، والغيمة السوداء اختفت، والمرأة الناحت صرخت صرختها الأخيرة، وسُحبت إلى العدم.

ثم ساد الصمت...

كريم كان راقداً على الأرض؛ الجليد غطى معظم جسده، الجرح في صدره كان فارغاً، الكلمة استُهلكت...

أشباح عائلته اختفت... كان وحيدًا.

- " هكذا إذن "

همس لأنفاسه الأخيرة.

- " هكذا تنتهي "

أغمض عينيه... ثم، سمع صوت خطوات.

فتح عينيه بصعوبة، شخص ما كان واقفًا فوقه؛ رجل ببذلة قديمة، بوجه

ملساء بلا تجاعيد، بعينين بلا بؤبؤ.

الناحت، الرجل، الشكل الذي جاء به في الحلم قبل أيام...

= " مسكين كريم، أظننت حقًا أنك ربحت؟ "

قال الرجل، منحنياً.

= " أنت... أنا أغلقت الباب... "

" = أغلقت بابًا واحدًا، أنا لست في الباب، أنا كنت هنا دائمًا، أنا في الهواء الذي تتنفسه، في الأرض التي تمشي عليها، في كل كابوس لكل إنسان، أنا أبدي، لا يمكن لأي كلمة أن تقتلني، يمكنها فقط أن تؤجلني "

جثا على ركبتيه بجانب كريم.

" = لكّك قدمت لي تسليّة رائعة، لم أستمتع هكذا منذ قرون، عائلتك كانت... تحفة "

رفع يده... في يده كانت بلورة صغيرة، بداخلها، كانت ثلاثة أشكال صغيرة تصرخ... (مريم، سلمى، آدم)

- " لا... "

تمتم كريم.

" = سأحتفظ بهم إلى الأبد، وكل ليلة، سأجعلهم يعيدون تمثيل موتهم، ولكي أجعل الأمور أكثر تشويقًا، سأعطيك هدية "

وضع يده على جبين كريم، دفع غريب سري في جسده، الجليد تلاشى،
الجرح أغلق، قلبه بدأ ينبض بقوة...

" لن تموت، ستعيش، ستعيش طويلاً، وكل ليلة، سترى هذا "

أشار إلى البلورة.

" سترأهم يموتون مراراً وتكراراً، ولن تستطيع أن تموت، ستتوسل

للموت، ولكن الموت لن يأتي، لأنني لن أسمح له "

وقف الرجل.

" هذا جزاء من يحاول هزيمتي "

ثم اختفى...

وبقي كريم وحيداً في قاعة اللحم الميتة، حياً، أبدياً، البلورة في يده،

وبداخلها عائلته، تصرخ بصمت...

الفصل الثالث عشر

"الحلوة المسمومة"

لم يمت كريم...

استلقى في قاعة اللحم الميتة تحت منزل جده لساعاتٍ، أو ربما لأيامٍ،
الزمن في ذلك العمق كان مختلفًا كان سائلًا، يتحرك في حلقات لا في
خطٍ مستقيم، البلورة الصغيرة كانت في يده المتشنجة، دافئة بشكل مقرز،
تنبض كقلبٍ صغير؛ كان يسمع صراخهم ليس بأذنيه، بل بعظامه، كان
صراخ مريم، وصراخ سلمى، وصراخ آدم، ينتقل عبر أصابعه إلى
ساعديه، وإلى كتفيه، وإلى صدره، حيث كان قلبه ينبض رغماً عنه.

الرجل ذو البدلة الأنيقة - الشكل الحقيقي للناحت - كان قد أوفى بوعده.
كريم كان حيًا، أكثر من حي؛ كان واعيًا بشكلًا مفرطًا، وكل حاسة كانت
مضخمة، كان يشعر بتدفق الدم في كل شعيرة دموية في جسده، كان
يسمع تساقط ذرات الغبار على الأرض، كان يشم رائحة الخلود نفسه
رائحة تشبه النحاس المحروق، والزهور المتعفنة.

في النهاية، نهض... ليس برغبة في الحياة، بل لأن جسده رفض أن يبقى ساكنًا، كان الجسد قد أصبح سجنًا مثاليًا، لا يمكن كسره، لا يمكن الهروب منه؛ مشى عائداً عبر الدرج الحزوني، صاعداً من عمق الأرض إلى المنزل، كل خطوة إلى الأعلى كانت تذكره بأنه يبتعد عن عائلته ويحملهم معه في نفس الوقت.

المنزل كان متغيرًا؛ لم يعد متغفًا أو حيًا، كان مجرد منزل قديم فارغ، والغبار غطى كل شيء، الشرائق اللحمية في غرفة سلمى تحولت إلى رماد، جسد سلمى على السرير... اختفى؛ لم يبق إلا انبعاج في المرتبة، وشعرتها السوداء الطويلة متناثرة على الوسادة.

جلس كريم على حافة سريرها، وحمل خصلة من شعرها، واستنشقتها، كانت لا تزال تحمل رائحة طفلاته الصغيرة، تحت رائحة الموت والغبار، دموعه، التي ظن أنها جفت إلى الأبد، عادت لتسيل...

همس للشعر...

- "سامحيني يا سلمى"

ثم وضع الشعر في جيبه، ونهض، وغادر المنزل...

كانت قرية تل العزلة قد تغيرت في تلك الأيام التي قضاها تحت الأرض،
لم يكن التغير في المباني أو الطرق، كان في الناس، الجميع بدوا أكبر
سنًا، الأطفال الذين رأهم يلعبون عند وصوله صاروا شاحبين، صامتين،
والرجال في المقاهي لم يعودوا يتحدثون، كانوا يحدقون في فراغ، النساء
كانوا يذرعن الشوارع بسرعة، أعينهن مثبتة على الأرض.

فقط الشيخ يونس كان ينتظره عند طرف القرية، جالسًا على صخرة تحت
شجرة سنط ميته، عيناه الضيقتان كانتا تنظران إلى كريم بمعرفة ثقيلة...

= "أنت عدت إذن"

قال الشيخ يونس...

" = عدت "

" = لكنك لم تعد "

نظر كريم إلى الرجل العجوز...

- " ماذا حدث للقرية؟ "

" = الناحت رجل؛ لكن ظله بقي، عندما تسحب سمكة كبيرة من النهر،

لا يعود النهر كما كان، الطمي يتحرك، والأسماك الصغيرة تموت،

والأشياء التي كانت مختبئة في الأعماق تطفو على السطح "

تنهد الشيخ يونس.

" = القرية تحتضر الآن ببطء، وكل يوم شخص يفقد عقله، وكل ليلة

طفل يختفي، الناحت كان وحشًا، لكنه كان منظمًا، بدونه، تسقط الأشياء

في الفوضى "

- " وماذا عني؟ "

" أنت؟ أنت أسوأ حالاً منا جميعاً، أخبرني، أين عائلتك؟ "

أخرج كريم البلورة من جيبه؛ كانت تشع بضوء خافت في شمس العصر،
نظر الشيخ يونس إليها، ولأول مرة، رأى كريم الخوف الحقيقي في عين
العجوز.

" هذه... هذه روحه "

همس الشيخ يونس.

" يا إلهي، ماذا فعلت لتستحق هذا؟ "

- " حاولت أن أقتله "

" نعم... هذا أسوأ ما يمكن فعله "

وقف الشيخ يونس بصعوبة على عكازه.

" الناحت لا يمكن قتله، يمكن فقط تجنبه، الأجداد عرفوا هذا، كانوا

يتركون له القربان، لم يكونوا جناء، بل كانوا عمليين "

- " القرايين؟ "

= " كل عشرين سنة، كانت القرية تقدم له روحًا، شابًا أو شابة، طوعية، يذهبون إلى الوادي ليلة اكتمال القمر الأحمر، ولا يعودون، بهذا كان يترك الباقيين في سلام؛ لكن جدك كسر هذا العهد، حاول أن يخدعه، والآن انظر إلينا جميعًا "

مشى الشيخ يونس مبتعدًا، ثم توقف...

= " لا تحضر جنازتي "

- " جنازتك؟ "

= " سأموت الليلة أعرف ذلك، الناحت القديم رحل، لكن الجديد بدأ يتشكل، ويحتاج إلى وجبته الأولى، أنا العجوز جدًا، المحمل بالذكريات، سأكون لذيذًا "

ثم اختفى في أزقة القرية الضيقة...

في تلك الليلة، جلس كريم في منزل جده وحيداً... كان يحمل البلورة في يده، يتأمل الوجوه الصغيرة التي تصرخ بداخلها، كان يحاول أن يفهم لماذا أعطاه إياها الناحت؟ لماذا لا يقتله فقط؟

الجواب جاءه في منتصف الليل...

كان جالساً في المكتبة، يقرأ آخر صفحات مذكرات جده، عندما سمع صوت خطوات خفيفة في الرواق، خطوات طفل...

- " آ... "

قال بصوت منخفض.

- " آدم؟ "

قال رغم معرفته أن آدم في البلورة.

الخطوات توقفت عند باب المكتبة، المقبض تحرك ببطء، الباب انفتح...

لم يكن آدم...

كان طفلاً آخر، طفل صغير، في السادسة من عمره، يرتدي بيجامة زرقاء، حافي القدمين، كان أحد أطفال القرية الذين اختفوا في الأسابيع السابقة.

= " عم كريم؟ "

قال الطفل بصوت رقيق.

- " نعم؟ "

= " بابا قال إنك ممكن تساعدني، أنا تأئه "

كان هناك شيء خطأ في الطفل، ليس في شكله، بل في الفراغ حوله؛ الظل الذي يلقيه على الحائط لم يكن ظل طفل، كان أطول، وأنحل، بأطراف كثيرة...

دخل الطفل الغرفة، ابتسم، وفي ابتسامته رأى كريم صفوف الأسنان الإبرية...

قال الطفل

" = الناحت يرسل لك تحياته ويقول إن وجبتك ستكون جاهزة قريبًا "

- " وجبتي؟ "

" = نعم... هو لا يريدك أن تموت جوعًا، ستحتاج إلى طعام، وطعامك

سيكون... "

أشار الطفل بإصبعه الصغير إلى عين كريم.

" = ...الدموع، سيبقيك تتألم لتنتج الدموع، وسيتغذى عليها "

ثم قفز الطفل على الحائط، وزحف عليه كعنكبوت إلى السقف، واختفى

في الظلام...

الفصل الرابع عشر

" مؤلف اللطم "

مضت السنوات لكنها لم تكن سنواتٍ عادية...

كريم بقيّ في قرية تل العزلة، لم يستطع المغادرة، كلما حاول أن يغادر،
كان جسده يتوقف عن الحركة عند أطراف القرية، كان كما لو أن حبلاً
غير مرئي يربطه بالبلورة، والبلورة مربوطة بالوادي، أصبح سجيناً في
مساحة ميلين مربعين.

القرية ماتت حوله ببطء... العائلات رحلت، والبيوت هدمت، والمسجد
الصغير أقفل، وفي النهاية، لم يبق إلا كريم، وحفنة من الشيوخ الطاعنين
في السن، ثم ماتوا هم أيضاً.

آخر من مات كان الشيخ يونس، تماماً كما توقع، وجده كريم في كوخه،
جالساً، وعيناه مفتوحتان وبيضاوان بالكامل، وعلى وجهه ابتسامة
عريضة جداً مزقت زوايا فمه...

أصبح كريم الحارس الوحيد لوادي الظلال... لكنّه لم يكن وحيداً حقاً؛ كل
ليلة، كانت الأشياء تأتي...

أحيانًا كانت تأتي على شكل أطفال القرية المفقودين، يلعبون في الفناء تحت القمر الأحمر، يضحكون ضحكات تشبه صرير الحشرات، وأحيانًا كانت تأتي على شكل نساء جميلات، يغوينه للخروج إلى الوادي، وأحيانًا كانت تأتي كصوت سلمى، يناديه من البئر الجاف خلف المنزل.

لكن أسوأ زائر كان يأتي مرة كل سنة، في ذكرى موت عائلته...

في تلك الليلة، كان الناحت نفسه يأتي، ليس في شكل الرجل ذي البدلة الأنيقة دائمًا، كان يغير شكله...

مرة جاء كجثة مريم، متورمة، تسبح في ماء النهر، ومرة جاء كجثة سلمى، ممزقة البطن، تحمل كائناتها الميتة في يديها، ومرة جاء كآدم، لكن بعينين مسودتين وفم مليء بالتراب.

وكل سنة، كان يسأل نفس السؤال :

" هل تريد أن تنتهي هذا؟ "

وكريم كان يجيب :

- " كيف؟ "

= " بأن ترضى، بأن تتوقف عن الحزن، بأن تتساهم "

لكن كريم كان يعرف أنها خدعة، إذا نسي حزنه، سيفقد آخر ما يربطه بعائلته؛ الألم كان كل ما تبقى له، الألم كان حبه، الألم كان مريم، وسلمى، وآدم.

- " لن أنساهم "

كان يقول كل سنة.

والناحت كان يبتسم...

= " إذن، أراك السنة القادمة "

في السنة العاشرة، حدث شيء جديد...

كان كريم جالسًا في فناء المنزل، يراقب غروب الشمس الأحمر، عندما
سمع صوت محرك سيارة...

كان هذا أول صوت آلة يسمعه منذ سنوات؛ نهض، وسار نحو مدخل
القرية...

سيارة دفع رباعي حديثة كانت متوقفة هناك، خرج منها رجل في
الأربعين، يرتدي ملابس مدينة، وجهه مألوف بشكل مؤلم؛ امرأة خرجت
من جهة الراكب، وطفلة صغيرة في السادسة من عمرها، قفزت من
المقعد الخلفي.

= " معذرة "

قال الرجل، مقتربًا من كريم.

= " أبحث عن منزل قديم، منزل جد عائلتي، اسمي نادر الشاذلي... أنا

ابن عمك "

تجمد كريم...

- " ابن عمي؟ "

= " نعم. والدي كان أخ والدك، لقد انقطعنا عن التواصل منذ زمن، لكنني وجدت أوراقًا قديمة، ووصية غريبة تأمرنا بالعودة إلى هنا إذا حدث شيء للعائلة "

نظر كريم إلى المرأة... كانت شابة، جميلة، بعينين خضراوين حزينتين، ثم نظر إلى الطفلة؛ كانت تحمل بين ذراعيها دمية قماشية قديمة، رفعت وجهها إليه، كان وجهها وجه سلمى وهي في السادسة.

- " ما اسمك؟ "

سألها كريم بصوت مرتجف.

قالت الطفلة

= " مروة "

لكن عينيها...عينيها أومضتا للحظة بضوءٍ ذهبي.

- " جميل "

قال كريم.

- " جداً جميل "

ثم نظر إلى السماء، حيث بدأ القمر الأحمر في الظهور...

- " تعالوا... سأريكم المنزل "

الفصل الخامس عشر

"إرث الدم"

قادهم كريم عبر القرية المهجورة؛ كان نادر يتلفت حوله بعصبية، زوجته (هدى) كانت تضم ابنتها إليها... كانوا يرون البيوت المتهدمة، والأشجار الميتة، والصمت المريب.

سأل نادر

" ماذا حدث لهذا المكان؟ "

قال كريم

- " ال...؛ فقط الزمن "

وصلوا إلى منزل الجد، كان أكبر وأكثر سوادًا مما يتذكر، أو ربما كان ينمو، ربما كان يتغذى على شيء ما...

- " هذا هو... منزل إبراهيم الشاذلي "

دخلوا... الغبار كان يغطي كل شيء، لكن الهواء لم يكن راكدًا، كان يتحرك، ويتنفس تقريبًا.

قال نادر

= " سنبقى هنا الليلة فقط، وغداً سنقرر ماذا نفعل به "

أعدّ كريم لهم غرفاً في الطابق العلوي؛ راقبهم وهم يصعدون الدرج،
والطفلة مروة كانت الأخيرة...

توقفت في منتصف الدرج، والتفتت إليه، قالت :

= " عمي كريم؟ "

- " نعم؟ "

= " الست التي في غرفتي تقول إنها تعرفك "

تجمد كريم...

- " أي ست؟ "

= " الست الجميلة ذات الشعر الطويل، تقول اسمها سلمى "

ثم أكملت صعودها...

في تلك الليلة، جلس كريم في مكتبة جده؛ كان يعرف أن الناحت قد عاد إلى اللعبة، عائلة جديدة من دم الشاذلي أتت إلى الوادي، الضحية التالية، الوجبة التالية... لكن هذه المرة، كان كريم جزءًا من النظام، كان يعرف، وكان يستطيع أن يحذرهم، وكان يستطيع...

= " لا تستطيع "

قال صوت من زاوية الغرفة...

الرجل ذو البدلة الأنيقة كان جالسًا هناك.

= " لقد أعددت هذا منذ عشر سنوات، عندما رتبت لتلك الوصية أن تصل إلى ابن

عمك، إنها بداية دورة جديدة، وأنت ستكون مساعدي فيها "

- " لن أفعل "

= " ستفعل... لأنك إن لم تفعل، سأجعل سلمى تأتي إلى الطفلة كل ليلة، وسأجعل مريم تهمس في أذن الأم، وسأجعل آدم يلعب مع الطفلة في الحديقة تحت القمر، وسأقودهم إلى الجنون ببطء، قطعة قطعة؛ أما إذا ساعدتني، سأجعل موتهم سريعاً، وغير مؤلم نسبياً، سأطلق أرواحهم ولن أحبسهم في البلورة "

نظر كريم إلى البلورة في يده... صراخ عائلته كان خافتاً الليلة، كأنهم يستمعون.

- " ما الذي تريده مني؟ "

= " بسيط، لا تتدخل، دَع الأمور تأخذ مجراها؛ الطفلة ستختفي بعد ثلاثة أيام، وسيجن الوالدان، وسيموتان في حادث سيارة وهما يبحثان عنها؛ وستنتهي القصة، وستحصل على ثلاث أرواح جديدة في مجموعتي "

- " ولماذا لا تفعل ذلك بنفسك؟ "

" = لأن القواعد، يا صديقي؛ أنا كيان من النظام، لا أستطيع أن آخذ إلا من يمنح نفسه لي... يجب أن يكون هناك اختيار؛ الطفلة ستختار أن تتبع سلمى إلى الوادي، والوالدان سيختاران اليأس على الحياة، وأنت... أنت اخترت منذ زمن طويل "

كان كريم صامتاً...

" = فكر في الأمر... أمامك ثلاثة أيام "

اختفى الرجل...

الفصل السادس عشر

"الطفلة والست"

في اليوم التالي، راقب كريم العائلة وهي تتأقلم مع المنزل؛ نادر كان عملياً، يحاول إصلاح الأشياء، هدى كانت قلقة، تشعر بشيء خطأ لكنها لا تستطيع تحديده، ومروة... مروة كانت سعيدة، كانت تركض في أرجاء المنزل، تضحك، وتلعب...

= " عمي كريم، تعال أريك شيئاً! "

قالت له بعد الظهر.

قادته إلى الحديقة الخلفية، حيث شجرة تين ميتة؛ تحت الشجرة، كانت هناك دائرة من الفطر الأسود...

= " هنا تعيش الست "

قالت مروة ببراءة...

- " أي ست؟ "

= " الست سلمى، إنها تأتي كل ليلة، تجلس هنا وتغني لي، تقول إنها كانت تعيش هنا قبل أن أولد، تقول إنها تحبني "

جثا كريم على ركبتيه أمام الطفلة.

- " مروة، اسمعيني، لا تذهبي معها، ولا تتبعيها إلى أي مكان... مهما قالت لك "

= " لماذا؟ "

- " لأنها... لأنها ليست كما تبدو "

مروة نظرت إليه بعينيها الواسعتين، وقالت :

= " لكنها تحبني، إنها تريد أن تريني مكانًا جميلًا في الوادي؛ قالت إن هناك أطفالًا آخرين هناك "

- " لا يوجد أطفال، لا تذهبي "

أومات مروة برأسها ببطء، لكن كريم رأى في عينيها أنها لم تفهم حقًا،
كان السحر قد بدأ...

في الليلة الثانية، استيقظ كريم على صوت غناء في الحديقة، صوت
سلمى...

نظر من النافذة تحت شجرة التين الميتة، في ضوء القمر الأحمر، كانت
سلمى جالسة، أو بالأحرى، شكل سلمى، كانت ترتدي فستانها الأبيض
المتسخ؛ كانت تمشط شعرها الطويل وبجانبها، كانت مروة جالسة،
تستمع باهتمام.

قال كريم لنفسه

- " يجب أن أتدخل "

لكن الرجل ذو البدلة الأنيقة كان واقفًا عند باب غرفته.

= " لا، لا يجب "

- " إنها طفلة "

= " سلمى كانت طفلة أيضًا، وآدم كان طفلًا؛ لم تتدخل حينها "

- " لم أكن أعرف! "

= " والآن تعرف، والآن، المعرفة هي لعنتك، راقب وتعلم، هذه هي

وظيفتك الآن، أن تكون الشاهد، المؤرخ، الشاعر الذي يكتب مأساة

الآخرين "

وقف كريم عند النافذة، يشاهد الطفلة وهي تضحك مع شبح ابنته،

والدموع تنهمر على وجهه.

كان هذا هو طعام الناحت؛ ليس موت الطفلة، بل دموع كريم وهي

تسقط.

في اليوم الثالث، اختفت مروة...

هدى كانت أول من لاحظ... دخلت غرفة ابنتها في الصباح، فوجدت السرير فارغًا، الدمية القماشية كانت موضوعة على الوسادة، مرتبة بعناية، وعلى جبين الدمية كانت هناك علامة، علامة الناحت.

نفس العلامة التي كانت على بطن سلمى...

صرخت هدى... مروة! مروة!

نادر ركض إلى الخارج؛ بحث في القرية كلها، كريم ساعده، لكنه كان يعرف أين يبحث في قلبه، كان يعرف.

عند الغروب، وجدوا الطفلة عند حافة الوادي الشرقي، كانت جالسة على صخرة كبيرة، تنظر إلى الأفق؛ كانت ترتدي فستانًا أبيض، ليس فستانها؛ كان فستان سلمى...

= " مروة! حمداً! "

ركضت هدى نحوها.

لكن عندما لمست كتف ابنتها، استدارت مروة ببطء، عيناها لم تكونا عينيها، كان فيهما شيئاً قديم، شيئاً ناضج، شيئاً مرعب...

= " أنا لست مروة "

قالت بصوت طفلة، لكن بنبرة امرأة.

= " مروة ذهبت لتلعب مع أطفال الوادي، أنا هنا فقط لأقول لكم وداعاً "

ثم أغمي على الطفلة، حملوها إلى المنزل، وضعوها على السرير، لكنها لم تستيقظ، كانت في غيبوبة، تبسم.

في تلك الليلة، بكى نادر، وهدى، وبكاؤهما كان الطعام الثاني للناحت؛ كان كريم يشعر بالكائن يتغذى، ينمو، يقوى، كان الهواء في المنزل يصبح أكثر كثافة.

وفي منتصف الليل، ذهب نادر، وهدى للبحث عن ابنتهما مرة أخرى؛ أخذوا السيارة، كانا يظنان أنها قد تكون عادت إلى الوادي.

لم يصل إلى الوادي؛ على الطريق الترابي، انحرفت السيارة فجأة، كما لو
أن يدًا خفية أمسكت بالمقود...

انقلبت، اشتعلت، ماتا محترقين...

سمع كريم الانفجار من المنزل... جلس في المكتبة، البلورة في يده،
بينما صوت صراخ العائلة الجديدة ينضم إلى صراخ عائلته القديمة.

الرجل ذو البدلة الأنيقة ظهر في الغرفة؛ كان يحمل بين ذراعيه الطفلة
مروءة، كانت مستيقظة الآن، لكن عيناها كانتا فارغتين.

قال الناحت:

= " أحسنت لقد كنت ممتازًا "

- " لم أفعل شيئًا "

= " بالضبط، هذا ما أردته، عدم فعلك، وصمتك، ودموعك؛ كل هذا

غذائي، والآن... سأعطيك مكافأتك "

مد يده من جيب سترته، أخرج بلورة جديدة... بداخلها، كانت ثلاثة أشكال جديدة تصرخ... (نادر، وهدي، ووالطفلة مروة)

- " لا! "

= " نعم. ستحتفظ بهم أيضاً... كل عشر سنوات، سأحضر لك عائلة جديدة، ستحملهم في جيبك، ستصبح مجموعتك أكبر، وكل ليلة، ستسمع صراخهم، ومع كل صرخة، سأشبع "

أخذ كريم البلورتين؛ في يديه ستة أرواح الآن... (زوجته، وابنته، وابنه، وابن عمه، وزوجته، وطفلتها)

همس

- " لماذا؟ لماذا تفعل هذا بي؟ "

= " لأنك سألتني مرة : (وماذا سيكون الثمن؟)، عندما عرضت عليّ أن أرحل... "

= " الثمن هو هذا، الثمن هو أن تصبح أنت، أن تصبح الناحت الجديد،
أنا سأعتلك، وسأدربك، وعندما يحين الوقت، سترثني، وستصبح كيان
الآلم الأبدي لهذا الوادي "

ثم انحنى الناحت وهمس في أذن كريم :

= " وهل تعلم ما هو أفضل جزء؟ أنا لم أختار عائلتك بالصدفة، كلهم من
نسل إبراهيم، كلهم وقعوا في الفخ الذي نصبته قبل مئة عام، وأنت يا
حفيدي الحبيب، ستصبح الصياد "

اختفى، وبقي كريم مع بلوراته الست...

الفصل السابع عشر

"دورة اللّلم"

(نخاية الرواية)

بعد خمسين سنة من الآن.

الشاب (يوسف) أوقف سيارته عند مدخل القرية المهجورة؛ كان في الخامسة والعشرين، خريج تاريخ، مهتم بالأساطير الشعبية، سمع عن وادي الظلال من أستاذه في الجامعة، وسمع عن رجل غامض يعيش هناك، رجل لا يموت، رجل يحمل في عينيه حزن ألف إنسان.

= " هل أنت الدكتور كريم الشاذلي؟ "

سأل الشاب الرجل العجوز الجالس على صخرة عند مدخل الوادي.

الرجل العجوز رفع وجهه؛ كان جلده متغضناً، لكن عينيه كانتا شابتين، لامعتين، ومرعبتين...

- " نعم أنا، ماذا تريد؟ "

= " أنا أكتب بحثاً عن الأساطير المحلية، عن الناحت "

ابتسم العجوز...

- " الناحت... لم أسمع هذا الاسم منذ زمن "

= " سمعت أنك الوحيد الذي يعرف الحقيقة "

- " الحقيقة... "

نظر العجوز إلى جيبه المنتفخ؛ كان هناك صوت صراخ خافت يصدر

منه... صوت ستة أشخاص، يصرخون في انسجامٍ أبدي.

- " الحقيقة هي أن بعض القصص لا يجب أن تروى "

= " لكنني أتوسل إليك، أريد أن أعرف "

نهض العجوز... كان طويلاً، أنحل مما يجب.

- " حسنًا... سأريك... تعال "

قاد الشاب يوسف عبر القرية المهجورة، إلى منزل قديم أسود؛ دخلاً...
الغبار كان يرقص في ضوء الشمس.

قال العجوز :

- " اجلس "

جلس يوسف، ونظر العجوز إليه طويلاً.

- " لديك عينا أمك "

قال أخيراً...

- " هدى، صحيح؟ "

تجمد يوسف...

= " كيف عرفت اسم أمي؟ "

- " لأنني أعرف كل فرد من هذه العائلة، وأنت بن عمي من الدرجة الرابعة، آخر من تبقى من نسل إبراهيم الشاذلي "

نهض يوسف للهرب، لكن الباب أغلق بقوة.

- " لا تخف "

قال كريم...

- " لن أؤذيك، ليس بعد أولًا، دعني أريك شيئًا "

أخرج من جيبه اثنتي عشرة بلورة، اثنتا عشرة... ليست ستًا؛ المجموعة نَمَت عبر السنين...

- " في كل واحدة من هذه، روح من عائلتنا، آباء، وأمّهات، وأطفال، كلهم ما زالوا يصرخون، هل تسمعهم؟ "

رفع البلورات إلى أذن يوسف؛ سمع الشاب الصراخ، صراخ اثني عشر شخصًا، سيكون، يتوسلون، يلعنون...

صرخ يوسف...

" لماذا؟ "

- " لأن هذا هو إرثنا، هذه هي لعنتنا، وهذا هو المصير الذي ينتظرك "

" وأنا؟ "

- " ليس الليلة، ولا السنة القادمة... لكن في يوم ما، ستعود إلى هنا،

ستحضر معك زوجتك، وطفلتك... وستبدأ الدورة من جديد. وأنا... "

رفع كريم البلورات إلى ضوء القمر المتسرب من النافذة.

- " ... سأكون هنا، شاهداً، دامعاً، آكلًا "

ثم أطلق يوسف، هرب الشاب إلى سيارته واندفع بعيداً عن تل العزلة...

لكنه في قرارة نفسه، كان يعرف، كان هناك شيء في المنزل ناداه، شيء

في الوادي همس له...

سيعود يوماً ما، الجميع يعودون...

جلس كريم في مكتبة جده، محاطاً باثنتي عشرة بلورة متوهجة، مبتسماً
ابتسامة ممزقة.

- "سامحوني، جميعاً، سامحوني"

لكن لا أحد يجيب، فقط الصراخ، الصراخ الذي لا يتوقف أبداً...

تحت المنزل، في قاعة اللحم الميتة، كان الرجل ذو البذلة الأنيقة ينتظر،
دائماً ينتظر...

= "أحسننت يا حفيدي"

همس.

= "أحسننت"

ها قد أغلقوا الكتاب... لقد انتهت الرواية... ناموا